

رُوبرتو بُولانيُو

ليل تشيلي

رواية

ترجمة:
عبد السلام باشا







روبرتو بولانيو



ليل تشيلي

رواية

ترجمة

عبدالسَّلام باشا



روبرتو بولانيو

ليل تشيلي

الكتاب: ليل تشيلي/ رواية
المؤلف: روبرتو بولانيو
المترجم: عبد السلام باشا
عدد الصفحات: 168 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-08-5

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى كارولينا لوبث ولاوراتو بولانيو


Twitter: @ketab_n

«اخلعِ الشَّعرَ المُستعَار»

تشيستيرتون


Twitter: @ketab_n

تقديم

ظهور كاتب متميز من كتّاب أمريكا اللاتينية بعد جيل الواقعية السحرية كان حدثًا تم انتظاره لسنوات عديدة، في الدوائر الثقافية والأكاديمية في العالم الناطق بالأسبانية. فتحوّل روبرتو بولانيو لكتابة القصة والرواية، بعد سنوات طويلة من كتابة الشعر، كشف عن وجود الوريث الشرعي لذلك الجيل الذي ترك بصمة مؤثرة في تاريخ الرواية. ومن هنا كان الاهتمام الأكاديمي والاعلامي بروبرتو بولانيو، فضلا عن معدلات توزيع كتبه التي تضاهي الكتاب الكبار مثل ماريو بارجاس يوسا وجابرييل جارثيا ماركيز.

موت الكاتب المبكر (في الخمسين من عمره) بعد سنوات قليلة من بدء انتشاره وشهرته، وترجمته إلى كل اللغات الأوربية تقريبا، صنع منه أسطورة أدبية وإنسانية. في أحيان كثيرة، كان الاحتفاء والإطراء، يخفي القيمة الفنية والأدبية لأعمال روبرتو بولانيو. هذا الاهتمام الإعلامي بكاتب تم اعتباره الخليفة الشرعي لبورخيس، كان يقابله لحسن الحظ اهتمام أكاديمي ونقدي حقيقي لدرجة أن السنوات القليلة التي شهدت كتابة بولانيو للنثريات، والسنوات التالية

لرحيله، شهدت الكثير من الأبحاث ورسائل الدكتوراه في جامعات غربية مختلفة وليس فقط في البلاد الناطقة بالأسبانية.

روبرتو بولانيو يكتب الرواية بلغة شعرية، لغة مكثّفة، محمَّلة بمعان عديدة مختلفة، مستويات قراءاتها متباينة. إلى جانب هذه اللغة الشعرية وقدرته على استخدام موهبته في السرد والحكي لخلق حالة من المتعة والانجذاب في كتاباته، كانت الكثير من موضوعاته وشخصياته لصيقة بالواقع وأحداثه التاريخية والسياسية الحقيقية.

نقطة التفرّد والتميز في تيار الواقعية السحرية كانت تلك القدرة على التماس مع ما هو يومي، ومزجه، وتضفيره مع أفكار ورؤى ناقدة وتقدمية (حتى لو كانت متضمَّنة، غير صريحة، وبالتلميح فقط). وهو ما يفعله بولانيو في الكثير من أعماله المستندة إلى وقائع، بل التي تعتبر انعكاسًا وتأريخًا لأحداث ووقائع تاريخية حدثت في البلاد التي عاش فيها مثل تشيلي والمكسيك. على الرغم من أن نجوم الواقعية السحرية لا زالوا على قيد الحياة، بينما رحل بولانيو عن عمر خمسين عاما، فإنه أضاف جوانب أخرى فنّية وسردية في أعماله تضعه في المكانة التي يستحقها. أهم هذه الجوانب هو العنف. حضور العنف في كثير من أعمال بولانيو مثل (التعويذة) و(المحققون المتوحشون) و(ليل تشيلي) ليس مجانيًا، بل انعكاسًا روائيًا وفنيًا لعنف حقيقي واقعي موثّق تاريخيًا. إنه ببساطة توثيق ووصف لهذا العنف الذي كان شبه يومي في بلدان القارة الأمريكية اللاتينية أثناء الحكم العسكري والدكتاتوريات.

في هذه الرواية لم تقم أي شخصية بإدانة العنف. فقط، قامت الشخصية الرئيسية بتبرير صمتها بأنها لم ترَ ولم تعرف به. لكن الإدانة جاءت بسخرية وتهكّم غير مباشَرَين على الإطلاق. الإدانة في (ليل تشيلي) لم تكن إدانة للعنف فقط، بل كانت إدانة لكل شيء، المجتمع المحافظ، نفاق الأفراد.. بالإضافة إلى السخرية غير المباشرة، على الأقل تلك التي تطرح في ذهن القارئ تساؤلات عن مدى وعي الشخصية الرئيسية بما يحكي من دون أي اهتمام بالتناقضات. الصفحات الأولى من الرواية تشهد تقديم الشخصية الرئيسية للقارئ: قِسّ، هو ناقد أدبي وشاعر، هذا القس عندما يقع فريسة للحمّى لا يقوم بالاعتراف كما يفترض أن يفعل أي شخص كاثوليكي متدين. بل على العكس، يحاول تقديم التبريرات، يظن أن لديه القدرة والقوة على تذكر الوقائع والحقائق التي تنصفه، في مقابل الافتراءات والاتهامات التي توجَّه له. إنه قسّ ينشغل بتبرير أفعاله ومواقفه أكثر من الاعتراف بخطاياه. لم تكن الحمى فقط. لأنه عندما كان بكامل وعيه أدرك أن أشعاره مليئة بالهرطقات والهذيان، ومع هذا لم (يرغب) في الاعتراف بهذا للقس الذي يعترف له. الشخص نفسه لا يتخلى عن رداء الكاهن عند لقائه الأول (ولا اللقاءات التالية) بالمجلس العسكري الذي تولى الحكم في تشيلي بعد الانقلاب الذي قاده بينوشيه على سلفادور ألليندي. وهو أيضًا نفس الشخص الذي يقرر بشجاعة وحسم، بعد حيرة وتردد، ألا يغيّر زيّ الكاهن قبل لقاء الضيوف المهمين على العشاء في ضيعة الناقد الأكبر في تشيلي.

هذا التناقض أو ازدواج المعايير يقود بالضرورة إلى حالة

الازدواج أو التناقض العامة التي تشهدها شخصيات الرواية بدءًا بالشخصية الرئيسية القس أوروتيا لاكروا. الشخصية الوحيدة التي تبدي تناسقا وتماسكا داخليا وخارجيا هي شخصية شاعر تشيلي الكبير، بابلو نيرودا. الظهور الصغير لنيرودا في الصفحات الأولى للرواية يبدو متسقا تماما مع ما يُعرف عنه: شاعر كبير، يناجي القمر. نجم تصل كلماته لسقف التكعيبة أو ما هو أبعد، للسحاب (لكنها لا تصل للسماء، هذا لم يقله القس، لكنه حدد ارتفاعها بالسحب التي وصفها بودلير).

ورغم هذا يشك القس أوروتيا في كون بابلو نيرودا ملحدًا حقًا. ربما يكون ذلك رغبة منه كقس في إنقاذ روح الشاعر الكبير، أو نفياً للآخر. مجرد نفي أو رفض لوجود أشخاص ملحدين، خاصة إذا كانوا محل تقدير واحترام.

التناقض والازدواج بشكل ما يمثلان أساس الرواية، حيث يوجد الشيء ونقيضه دائما. بمعنى أدق يتعايش الشيء ونقيضه، لكن أحدهما على حساب الآخر دائما. أحدهما أكثر من الآخر. القس هو نفسه الشاعر والناقد الأدبي. القس «طاهر طهراً لا شائبة فيه»، لكن الشاعر والناقد الأدبي «طهره بين بين». القس لا بد أن يحمل الرحمة في قلبه، لكنه كشاعر وناقد يتحدّث عن شخصيات مهمة تنتظره على العشاء، ولا يكبح تقزّزه ورؤيته للفلاحين (الذين يتماهون مع العبودية) كشخصيات قبيحة لا معنى لكلماتها أو تعبيرات وجوهها. هذه الأمثلة يوجد العديد منها داخل الرواية. لكننا سنركز على بعض الأمثلة فقط عبر شخصيات أخرى وعلاقاتها بالقس أوروتيا.

أهم هذه الشخصيات هما السيدين «بعر وهرك». بعكس ترتيب الحروف يمكن قراءة الاسمين «رعب» و «كره». إنها حيلة لغوية من المؤلف للتعبير عن شخصيتين تمثلان نقطة تحول في حياة الشخصية الرئيسية كلما واجه أزمة أو مشكلة روحية أو وجودية. كأنه يجب أن يتعايش مع هذين الشعورين: الخوف والكره. هما شريكان، يعملان لحساب شخص غير معروف. يتميزان بالكفاءة لكنهما يفتقدان للّباقة. أحدهما مهادن (بعر) والآخر قاس مهاجم دائما (هرك). هذان الشخصان المنفّران يمثلان العصا والجزرة، يظهران في حياة القس أوروتيا في اللحظات الحرجة، كأن ظهورهما معا يمثل الحل النهائي، الحل الذي يجمع بين النقائض، لكي يستطيع البطل/ البطل الضد، وبالتبعية البلد، الاستمرار في الحياة. يقدمان له حلّا في صورة عمل مجز (وهو ما تفعله الأنظمة الشمولية والديكتاتورية): الاستقرار والازدهار الاقتصادي مقابل الحرية الشخصية. لكنه لا يرفض هذه الحلول. بالعكس يرحّب بها ويرى أنها طوق النجاة في لحظات الضعف والانهيار.

حتى صورة الديكتاتور بينوشيه في الرواية لا تخلو من هذا الازدواج: رجل عسكري مهيب قوي، لكنه يهتم بقراءة الكتب، بل وكتابتها. رغم أن مؤلفاته (المذكورة في الرواية) تنحصر في العلوم العسكرية، إلا أنه بالمقارنة بالرؤساء المنتَخَبين ديمقراطيا قبل قيامه بالانقلاب العسكري، يعتبر شخصا مثقفا، محبا للقراءة والكتابة، حسب وجهة نظر القس بالطبع (وهو أمر قد يخفي نوعا من السخرية والتناقض).

وهو نفس القس/ الناقد الأدبي، الذي يهرب من الواقع المرير (الذي يمثله بالنسبة له فوز ألليندي بالرئاسة) إلى قراءة كتّاب الإغريق القدماء. هروب القس وانعزاله عن مجتمع يبشِّر بقيم جديدة كالعدل والمساواة والحرية. وكذلك هروب المثقف إلى كتابات الإغريق القديمة التي تعتبر قيمة فكرية وثقافية عابرة للعصور والأيدلوجيات. ومن جانب آخر القراءات التي يذكرها تتطور بشكل متواز مع تطورات الواقع المأزوم. إنها كتب قديمة تناقش أفكار التوحيد والأخلاق والفضيلة والحرب والقوة والعنف، لكنها تنتهي قبل ميلاد المسيح، كما يتوقف هو عن قراءة الإغريق مع وقوع الانقلاب العسكري. نهاية ألليندي تجعل القس يشعر بالهدوء والأمان. إنها عودة للمجتمع القديم نفسه، وإلى القيم القديمة. تلك القيم القديمة التي يعرفها القس ويعرفها الناقد الأدبي الذي يكتب الشعر. وباحترام هذه القيم التراتبية الأوليجاركية أمكنه أن يجد مكانا في عالم الثقافة والأدب. باللجوء إلى ناقد أدبي كبير، إقطاعي، في بلد غارق في الجهل. بلد (همجي لا يعرف أبناءه القراءة والكتابة). ثقافة الإقطاع وتقاليده تنسحب على الأدب والثقافة أيضا، حيث يتوقع (أو يتمنّى) القس أوروتيا أن يقوم الناقد الكبير فارويل بدعوة شاعر ذا خلفية دينية ومؤرخ شهير وكاتب نثريات رقيق الأسلوب. يحدث هذا في بلد يشهد في تلك الحقبة، حقبة الخمسينات ميلاد جيل أدبي وفني جديد ثائر على التقاليد والقيم الفنية والاجتماعية السابقة. لكن القسّ، الشاعر والناقد الأدبي، يختار أو يلجأ إلى الطريق الذي يتفق مع شخصيته: تيار تقليدي حماته أو علاماته أصحاب إنتاج محافظ وتقليدي.

تلك الاختيارات نفسها التي تعتبر إشارات لمعايير العالم الذي يرغب القس أوروتيا في دخوله تحمل قدرا كبيرا من السخرية والتهكم من الشخصيات واختياراتها. رغم أنه يفعل هذا بشكل غير مباشر. فلنقل إنه مستوى آخر من القراءة (يفترض أو يتطلب معرفة من القارئ بالخلفية الاجتماعية والسياسية لتشيلي). ولأن هذه الإشارات والتلميحات مغلّفة دائما بخطاب جاد وتوصيفات توحي بالاحترام والتوقير من المؤلف على لسان القس أوروتيا، يصبح من الصعوبة اقتناص هذه السخرية التي تصل إلى حد الاستهزاء. رغم أن بعض الأمثلة تثير تساؤلات بديهية حول الاتساق مثل الرحلة الطويلة التي يقوم بها القس أوروتيا إلى أوربا بغرض معرفة ودراسة التقنيات المتقدمة لحماية الآثار والكنائس في القارة العجوز، حيث يقال إنه تم الوصول لحلول نهائية للقضاء على تدهور بيوت العبادة في مقابل الجهل المطلق في تشيلي، وفي أمريكا الجنوبية. لكن هذه الرحلة تسفر عن مشاهدة عدة صقور في بلدان أوربية مختلفة تقوم بقنص الحمام وبهذا يختفي الحمام وفضلاته ذات الأثر المدمر على الكنائس الأثرية. إنه لا يتهكم على هذا. بل يقوم بصياغة تقرير مركّزاً على هذه التقنية. وعندما يأتي ذكر إسبانيا نجد أنهم لا يهتمون حتى باستخدام الوسيلة المتبعة في بلدان أوربية أخرى. الشيء الوحيد الذي يذكره القس بالتقدير في إسبانيا هو (الأوبوس داي ونشاطهم).

يقول بورخيس «ماذا قدم أبناء إقليم الباسك للعالم أكثر من حلب البقر وقتل الجنود». هذه الكلمات تبدو النقيض، أو المعادل الساخر المعبر عن الاحتقار لخيارات الأب أوروتيا لاكروا. من المعروف

أن تشيلي تعتبر من أكثر البلدان التي شهدت هجرات من أبناء إقليم الباسك الأسباني، لكن لم يُعرف عنهم على الإطلاق أي اهتمامات أو انجازات ثقافية أو فكرية. في مقابل هذه الحقيقة نجد أن اشارات القس أوروتيا (لقب عائلة باسكي أيضا) إلى أكثر من شخصية فكرية متخيلة ذات ألقاب باسكية أيضا:

[(كان لديه دائمًا ضيوفٌ من الكتاب في مزرعته). ربّما الشاعر «اوريبارينا»، وهو مؤلِّف قصائد دينية رائعة. ربّما سأجد «مونتويا ايثاجيري»، كاتب صاحب أسلوب رقيق في النثريات القصيرة. وربّما «بالدوميرو ليثاميندي ايراثوريث» مؤرّخ شهير من الثقات]

الاسماء الثلاثة المذكورة مخترَعة، يضمّنها المؤلف إشارات الى شخصيات حقيقية مثل نيرودا أو شخصيات حقيقية مشار لها باسم آخر مثل «فارويل». وهذه الأسماء الثلاثة من أصل باسكي. كأن المؤلف يتهكم على شخصيته الرئيسية وأصلها الباسكي أيضا.

رغم أن السرد في هذه الرواية على لسان البطل يبدو مقنعا، بكلماته الجادة المحملة أحيانا بالحيرة والتردد، إلا أنها تستحق قراءة ثانية تقف على التفاصيل. وقد حاولنا في الهوامش (التي تم اختصارها لكون العمل رواية، وليس مقالات أو كتاب في التاريخ) إلقاء الضوء على الحوادث والقراءات ذات الصلة بالحالة النفسية والعقلية للشخصية الرئيسية.

تبقى الاشارة إلى أن معظم الشخصيات الفاعلة في الرواية هي من اختراع المؤلف، باستثناء نيرودا وبيونشيه وألليندي بالطبع. وبعض

الشخصيات الأخرى هي ظل لشخصيات حقيقية مثل الناقد الأدبي، والكاتبة الناشئة وزوجها الأمريكي اللذان كانا يعملان مع المخابرات التشيلية والأمريكية. بالإضافة إلى الشخصية الرئيسية، سباستيان أوروتيا لاكروا، المستوحاة من شخصية حقيقية، هي القس «خوسيه ميجل ايبانيث لانجوليس»، الذي كان عضوًا في الأوبوس داي. وكان يكتب تحت اسم «إجناثيو بالينتي». وقد قام بالكتابة الأسبوعية خلفا لـ Alone في جريدة (ميركوريو) بين عامَي 1966 و1994. وكان «بالينتي» يعتبر أهم ناقد أدبي خلال ديكتاتورية بينوشيه. وقد قام بالفعل بتدريس الماركسية لأعضاء المجلس العسكري بعد الإنقلاب على سلفادور ألليندي.

إن تقديم هذه الرواية للقارىء العربي فرصة للتعرّف إلى كاتب كبير تُرجمت وتُترجم أعماله إلى معظم لغات العالم ويحتل مكانة بارزة في عالم الرواية.


Twitter: @ketab_n

ليل تشيلي


Twitter: @ketab_n

أنا الآن أموت، لكن لديَّ أشياء كثيرة لم أقلها بعد. كنت في سلام مع نفسي. صامت وفي سلام. لكن فجأة حدث كلُّ شيء. ذلك الشابُّ الهَرِم هو السبب. كنتُ في سلام، والآن فقدته. يجب إيضاح بعض النقاط. لهذا سأستند على مِرفقي وأرفع رأسي النبيل المرتعش، وسأبحث في ركن الذكريات عن تلك الوقائع التي تنصفني وبالتالي تفضح الأكاذيب التي نثرها الشابُّ الهَرِم لكي يُفقدَني مصداقيّتي، في ليلةٍ واحدةٍ عاصفةٍ لم يتوقّف فيها البرق. مقصِدُه فقدانُ مصداقيتي. يجب أن يكون المرء مسئولًا. قلتُ هذا طوال حياتي. الفرد عليه التزامٌ أخلاقي بالمسئولية عن أفعاله، وأيضًا عن كلماته، وحتَّى عن صمته، نعم، عن صمته؛ لأنَّ الصمت يصعد إلى السماء أيضا، ويسمعه الربُّ، وهو، فقط، يفهمه ويحكم عليه. وهكذا، حذارِ من الصمت. أنا مسئولٌ عن كلّ شيء. صمتي طاهر. فليكن هذا واضحًا. وعلى الأخصِّ فليكن واضحًا للربّ. ما عداه لا أهمّيةَ له، أمَّا الربُّ فهو ما يهمّني. لا أدري عمّا أتكلّم. أحيانًا أُفاجَأ بنفسي متّكأً على مِرفقي. أشرد، وأحلم، وأحاول أن أكون في سلام مع نفسي.

لكنّني أحيانًا أنسى اسمي نفسَه. اسمي سباستيان أوروتيا لاكروا. أنا من تشيلي. أسلافي من ناحية الأب يتحدّرون في الأصل من محافظات الباسك أو إقليم الباسك أو «اويسكادي» كما يُطلق عليها اليوم. من ناحية الأمّ أنتمي إلى أراضي فرنسا الجميلة، من قرية صغيرة يعني اسمها بالإسبانية (رجل واقف على الأرض) أو (رجل واقف على قدميه)، ولغتي الفرنسية مع اقتراب النهاية، ليست جيّدة كما كانت من قبل. لكن ما زالت لديّ قدرةٌ على التذكّر والردِّ على افتراءات هذا الشابّ الهرِم الذي وصل فجأة حتَّى باب بيتي وسبَّني من دون أسباب أو مقدّمات. فليكن هذا واضحًا. أنا لا أسعى للمواجهة، لم أسعَ لها قطّ. أنا أسعى للسلام، مسئولٌ عن الأفعال والكلمات وعن الصمت. أنا رجل عقلاني. كنت دائمًا رجلًا عقلانيًّا. في الثالثة عشرة شعرت بنداء الربِّ ورغبت في الالتحاق بمدرسة اللاهوت. اعترض أبي. لم يكن حازمًا في رفضه، لكنَّه اعترض. ما زلتُ أتذكَّر ظلّه مُتسحّبًا في غرف بيتنا، كأنّه ظلٌّ لابن عرسٍ أو ثعبان البحر. وأتذكَّر، لا أعرف كيف، لكنّ المؤكَّد أنّني أتذكّر ابتسامتي وسط العتمة، ابتسامةَ الطفل الذي كنتَه. وأتذكَّر البساط المعلَّق على الحائط ويمثّل مشهدَ صيد. وطَبَقًا معدنيًّا مُزيَّنًا بمشهد عشاء وفيه كلُّ الزخارف المناسبة. ابتسامتي وارتعاشي. بعد عام، في الرابعة عشرة دخلتُ مدرسة اللاهوت، وعندما خرجتُ بعد وقت طويل، أُمِّي قبّلت يدي وقالت لي: «أبي»، أو أعتقدُ أنَّها نادتني

«أبي» وإزاء دهشتي واعتراضي قلت: (يا أمّي،لا تناديني أبي، أنا ابنُك)، قلتُ لها هذا وربّما لم أقل لها أنا ابنك، لكن أنا الابن. فـأخذَتْ في البكاء أو النواح. وفي تلك اللحظة فكّرتُ، وربّما الآن فقط أفكّر، أنَّ الحياة ليست سوى سلسلةٍ من الأخطاء تقودُنا إلى الحقيقة النهائية، الحقيقةِ الوحيدة. قبل أو بعد وقت قصير، أي قبل أيّامٍ من رسامتي قَسًّا أو بعد أيّام من أخذ القَسَم المقدَّس تعرّفت على فارويل[1]، فارويل الشهير، لا أتذكَّر بدقَّة أين، ربَّما في بيته فقد زرتُ بيتَه وربَّما ذهبتُ إلى مكتبه في الصحيفة. وربَّما رأيتُه لأوّل مرّة في النادي الذي كان عضوًا فيه، في مساءٍ كئيبٍ مثل الكثير من أُمسِيَات أبريل في سانتياجو. لكن في داخلي كانت الطيور تغنّي والبراعم يانعة كما يقول الشاعر. كان فارويل هناك، طويلًا، مئة وثمانون سنتيمترًا، لكن كان يبدو لي أنّه يبلغ المترين. كان يرتدي حُلّةً كاملةً رماديةً من الصوف الإنجليزي الجيّد. حذاءً يدويَّ الصنع. رابطةَ عنقٍ من الحرير، وقميصًا أبيضَ بلا

---

(1) Farewell لا يوجد أيُّ ناقدٍ أدبي تشيلي بهذا الاسم، وعلى الأرجح هذه الشخصية إحالة لشخصية الناقد الأدبي «هرنان ديات أريتا» (1891-1984) والذي كان يوقّع كتاباتِه على مدار نصف قرن باسم "Alone" . كان كاتبًا غزير الإنتاج، ترك مكتبة ضخمة. من أهم كتبه: مذكّرات ناقد أدبي (1976). كان «أريتا» صحفيًّا منتميًا إلى اليمين، لكن هذا لم يمنعه من أن يكون صديقًا ومدافعًا عن «بابلو نيرودا» شاعر تشيلي الأشهر.

كما أن إحدى قصائد نيرودا تحمل عنوان Farewell ويمكن ترجمته «وداع» أو «فراق». وهي إحالة من المؤلّف لخلق حالة من التناصّ بين نيرودا وقصيدته من جانب، والحالة النفسية والعقلية للشخصية الروائية التي تقوم بالحكي.

شائبةٍ كأحلامي، أزرار أكمامِه ذهبية. ودبوسًا في رابطة العنق ميزت فيه بعض النقوش التي لم أرغب في قراءتها لكنَّ مغزاها لم يغب عنِّي على الإطلاق. أجلسني فارويل إلى جانبه، بالقرب منه. وربَّما قبل ذلك صحبني إلى مكتبته أو مكتبة النادي وبينما كنَّا ننظر إلى كعوب الكتب، أخذ يسعل وربَّما كان ينظر لي بطرف عينه أثناء سعاله، لكن لا يمكنني أن أؤكِّدَ هذا. فلم أكن أرفع نظري عن الكتب، ثم قال لي شيئًا لم أفهمه أو لم تحتفظ به ذاكرتي، ثم عدنا للجلوس. هو على مقعد ذي مسندين وأنا على كرسي، وتحدّثنا عن الكتب التي كنَّا ننظر إليها منذ قليل ونداعب كعوبَها، أنا بأصابعي النَّضِرة كشابٍّ حديث التخرُّج من مدرسة اللاهوت، وفارويل بأصابعه الغليظة المشوّهة قليلًا كما يُنتَظر من عجوز طويل للغاية. وتحدّثنا عن الكتب، وعن مؤلِّفِي تلك الكتب. كان صوت فارويل كعُواءِ طائر قنصٍ ضخمٍ يحلِّق فوق أنهارٍ وجبالٍ ووديانٍ ومضايقَ. يتكلّم دائمًا بالتعبير المناسب، الجملة المتَّسقة مع فكرته كإحاطة القفَّاز باليد. وعندما قلتُ له بسذاجة عصفور إنّني أريد أن أصبح ناقدًا أدبيًّا، وأن أواصل الطريق الذي فتحه. وأنّه لا يوجد شيء على الأرض يفوق حبِّي القراءة والتعبير بصوتٍ عالٍ وبنثر جميل عن نتائج قراءاتي. آه. عندما قلت له هذا، ابتسم فارويل ووضع يده فوق كتفي (يد ثقيلة كأنّه يحمل قفازًا من الحديد أو أثقل)، تفرَّس في عينيّ وقال إنّ الطريق ليس سهلًا. في هذا البلد الهمجي، قال، هذا ليس طريقًا

مفروشاً بالورود. في بلد أصحابه من مُلّاك الضياع، الأدب يعتبر شيئًا شاذًّا ومعرفة القراءة لا قيمة لها... ولأنّني لم أرد عليه خجلًا، سألني مقرِّبًا وجهَه من وجهي إن كنت أشعر بالضيق أو الإهانة من أيِّ شيء. هل أنت أو أبوك من ملّاك الضياع؟ لا، قلتُ له. أمّا أنا فنعم، قال فارويل. أمتلك ضيعةً بالقرب من (شيان)، فيها حقلُ عنبٍ صغير، إنتاجُها من النبيذ ليس سيِّئًا. وبعد ذلك مباشرة، دعاني في عطلة نهاية الأسبوع التالية إلى ضيعته التي كان اسمُها على اسم أحد كتب (هيوسمانز)، لكن لا أتذكّر أيّ كتاب. ربّما «Á rebours» أو «Lá-bas» بل قد يكون اسمُها «L'Oblat». ذاكرتي لم تعد كما كانت من قبل. أعتقد أنَّ اسمها «لا ـ باس»، والنبيذ كان يحمل نفس الاسم. وبعد أن دعاني فارويل ظلَّ صامتًا على الرغم من أنَّ عينيه الزرقاوين كانتا ثابتتين على عينيّ. وأنا أيضًا ظللتُ صامتًا ولم أستطع احتمال نظرة فارويل النافذة، فخفضت بصري بتواضعٍ كعُصفورٍ جريح وتخيّلت تلك المزرعة حيث كان الأدبُ طريقًا من الورود وحيث معرفة القراءة لها قيمة. حيث كان تذوُّق الثقافة أكثر أهمِّيةً من الاحتياجات اليومية ومن الإلتزامات. وبعد ذلك رفعتُ بصري والتقت عينيّ طالب مدرسة اللاهوت بعينَيّ الصقر فارويل فأحنيتُ رأسي موافقًا عدّة مرّات، وقلتُ إنّني سأذهب، وإنّه لشرفٌ لي أن أقضيَ نهاية الأسبوع في ضيعة الناقد الأدبي الأكبر في تشيلي. وعندما حَلَّ اليوم الموعود كانت روحي مليئةً

بالارتباك والشكّ، لم أكن أعرف أيَّ الملابس أرتدي، الرداء الكهنوتي أم الملابسَ الدنيوية. وإن قرّرت اختيار الملابس الدنيوية، لم أعرف أيّها أختار. وإن استقررت على الرّداء كانت الشكوك تساورني حول الاستقبال الذي سوف ألقاه. كما لم أعرف أيَّ كتبٍ أحمل للقراءة في القطار في طريق الذهاب والعودة. ربّما «تاريخ إيطاليا» لرحلة الذهاب، وربّما «مختارات من الشعر التشيلي» لفارويل في طريق العودة. أو العكس. كما أنني لم أكن أعرف أيَّ الكُتَاب سأجد في «لا ـ باس» (كان لديه دائمًا ضيوفٌ من الكُتَّاب في مزرعته). ربّما الشاعر «اوريبارينا»، وهو مؤلِّف قصائد دينية رائعة. ربّما سأجد «مونتويا ايثاجيري»، كاتب صاحب أسلوب رقيق في النثريات القصيرة. وربّما «بالدوميرو ليثاميندي ايراثوريث» مؤرّخ شهير من الثُّقات. كان الثلاثة من أصدقاء فارويل. لكن في الواقع كان فارويل يمتلك الكثير من الأصدقاء، ومن الأعداء، بحيث يصبح من العبث محاولة التخمين في هذا الصدد. عندما وصل اليوم الموعود انطلقت من المحطّة بروح منقبضة وفي نفس الوقت مستعدًّا لأيِّ حادثٍ عاثرٍ يرغب الربُّ بحكمته في امتحاني به. وكأنّه اليوم، (بل الأفضل ليتَه اليوم) أتذكّر الريف التشيلي والبقراتِ التشيليةَ ببقعِها السوداء (أو البيضاء، على حسب) ترعى بجوار خطِّ السكّة الحديد. أحيانًا كانت هزّات القطار تحملني على النعاس. أغمضت عينيَّ. أغمضتُهما كما أغمضهما الآن. لكنّني كنتُ

أفتحهما فجأة فأجد طبيعة مختلفة. أحيانًا مبهجة وأحيانًا كئيبة. عندما وصل القطار إلى (شيان) أخذت تاكسيًا أنزلني في قرية اسمُها «قيراكين». في مكان يبدو الميدان الرئيسي، (لا أجرؤ على مقارنته بميدان السلاح في العاصمة) ولا يوجد فيه أثر للبشر. دفعت لسائق التاكسي، نزلت بحقيبتي ورأيتُ المشهد الذي يحيط بي. عندما التفتُّ مرَّة أخرى أنوي سؤالَ السائق عن شيء أو الصعود للتاكسي مرّة أخرى وبدء رحلة عودة مبكِّرة إلى «شيان» ثم إلى سانتياجو، ابتعدت السيارة فجأة. كأنَّ تلك الوحشة المنذرة بالخطر قد أيقظت في السائق مخاوف قديمة. لبرهةٍ شعرتُ أيضًا بالخوف. لا بدَّ أنَّني كنتُ أبدو مخلوقًا تعِسًا أثناء وقوفي في هذا الخلاء بحقيبتي من أيّام معهد اللاهوت ويدي ممسكة بـ«مختارات» فارويل. من خلف أكمَةٍ، طارت بعض الطيور. يبدو أنَّها كانت تصرخ باسم تلك القرية المعزولة، (قيراكين)، وكأنَّها تقول أيضًا: «كيين، كيين، كيين»[1]. تلوت صلاةً على عَجَلٍ واتَّجهت إلى مقعدٍ خشبي لأتخذَ هيئةً تتّسق مع وضعي أو مع ما كنتُ أعتقد أنّه وضعي. يا مريمُ العذراء لا تتخلَّي عن عبدك، غمغمت أثناء صياح الطيور السوداء التي يبلغ طولها خمسةً وعشرين سنتيمترًا «كيين، كيين، كيين». يا عذراءَ لوردس لا تتخلّي عن كاهنك المسكين، غمغمت أثناء صراخ الطيور

(1) Quién في الأصل الإسباني، وترجمتها: «من». ربما يكون صدى الكلمة المتكررة انعكاسا لتساؤل الشخصية عن هويتها.

الأخرى «كيين، كيين، كيين» بصوتٍ أضعفَ. كانت بُنِّيَّةً أو بمعنى أدقَّ يميلُ لونُها إلى البنِّي، بصدرٍ أبيض، ويبلغ طولُها عشرة سنتيمترات. يا عذراءَ الآلام، يا عذراءَ النور، يا عذراءَ الشِعر، لا تتركي خادمَك في العراء، غمغمت أثناء عواء بضعة طيورٍ دقيقةِ الحجم ألوانُها أرجوانية وسوداء وفوشيا وصفراء وزرقاء «كيين، كيين، كيين». في نفس الوقت هبَّت فجأةً رياحٌ باردة نخرت في عظامي. حينئذٍ، رأيتُ في نهاية الشارع المُترب ما يشبه الحنطور أو عربةً مكشوفةً أو عربةً بصندوقٍ يجرُّها حصانان، أحدُهما أشهبُ والآخر عربيٌّ داكنُ اللون، متجهةً إلى مكاني. كانت تبدو في الأفق بمظهرٍ لا يمكنني إلَّا أن أصفَه بالمُدمِّر، كأنَّ تلك العربة جاءت لتحمل شخصًا إلى الجحيم. عندما أصبح يفصلُها عنِّي بضعةُ أمتار سألني السائق، وكان فلَّاحاً يرتدي قميصًا وسترةً من دون أكمام برغم البرد، سألني إن كنتُ أنا السيِّد «أوروتيا لاكروا». لم ينطق لقبي الثاني فقط بشكل خاطئ، وإنَّما الأوّل أيضًا. قلتُ: نعم، أنا مَن تبحث عنه. فنزل الفلّاح من دون أن يقول كلمة واحدة، وضع حقيبتي في الجزء الخلفي من العربة ودعاني إلى الصعود بجانبه. مرتابًا ومتصلّبًا بسبب الرياح الجليدية التي تهبط من سفح الجبل. سألته إن كان قادمًا من ضيعة السيِّد فارويل. لم آتِ من هناك، قال الفلَّاح. ألم تأتِ من «لا ـ باس»؟، سألت بينما تصطكّ أسناني. نعم من هناك أتيتُ، لكنّني لا أعرف ذلك السيِّد، قال الرجل الطيّب. وأدركت حينها ما يجب أن يكون بديهيًّا.

فارويل هو اسم الشهرة لناقدنا. حاولت أن أتذكَّر اسمه. كنتُ أعرف أنَّ لقبَه الأوّل «جونثالث» لكنَّني لم أتذكَّر اللقب الثاني وخلال بضعة لحظات تحيّرتُ بين أن أقول إنَّني ضيفُ السيِّد «جونثالث» فقط أو السكوت. اخترت السكوت. اتَّكأت على سلّم العربة وأغمضت عيني. سألني الفلَّاح إن كنتُ متوعِّكًا. سمعت صوته الذي لم يكن سوى همسٍ ذهب مع الريح بسرعة، وفي تلك اللحظة تذكَّرت اللقب الثاني لفارويل: «لاماركا». أنا ضيف السيِّد «جونثالث لاماركا»، قلتُ متنهِّدًا بارتياح. السيِّد في انتظارك، قال الفلّاح. عندما خلفنا وراءنا «قيراكين» وطيورها شعرت بالانتصار. في «لا - باس» كان فارويل ينتظرني برفقة شاعرٍ شابٍّ لا أعرف اسمه. كانا، كلاهما، في الليفينج (صالة المعيشة) برغم أنَّ وصف تلك القاعة بصالة المعيشة يعتبر خطيئة، الأدقُّ أنَّها تشبه مكتبة وقاعة للصيد، فيها أرففٌ كثيرةٌ مليئةٌ بالموسوعات والقواميس والمقتنيات التي اشتراها فارويل خلال رحلاته إلى أوربَّا وشمال أفريقيا، فضلًا عن دستة من الرءوس المحنّطة على الأقل وبينها زوج من الأسود الأمريكية التي اصطادها والد فارويل بنفسه. كانا يتحدّثان، عن الشعر كما كان متوقّعا، وبرغم أنَّهما قطعا حوارهما عندما وصلت، إلَّا أنَّهما استأنفاه فور أن ذهبت لوضع أشيائي في غرفة بالطابق الثاني. أتذكّر أنّني آثرت الصمت على الرغم من رغبتي في المشاركة في الحوار، وكلّما دعيت بلباقة إلى الكلام. برغم اهتمامي بالنقد،

كنت أكتب الشعر أيضًا، وحدست أنَّ مشاركتي في ذلك النقاش المرح الصاخب بين فارويل والشاعر الشابِّ سيصبح مثل السباحة في مياه عاصفة. أتذكّر أنّنا شربنا كونياك وأتذكَّر أنّني في لحظةٍ ما، بينما كنت أقلّب في مجلّدات مكتبة فارويل، شعرتُ أنّني تعِسٌ للغاية. من وقت لآخر كان فارويل يضحك بصخب مبالغٍ فيه. كلّما انطلق في إحدى قهقهاته، كنت أنظر بطرف عيني. كان يبدو الإله بان[1] أو باكو[2] في كهفه، أو أحد الغزاة الإسبان المتهوّرين محبوسًا في حصنه الصغير في الجنوب. على النقيض، كانت ضحكة الشاعر الشابّ رفيعة كالسلك، ومتوتّرة كالسلك. كانت ضحكتُه تتبع دائمًا ضحكة فارويل الكبيرة، كحشرةِ يعسوبٍ تطارد ثعبانًا. في لحظةٍ ما أعلن فارويل أنّنا ننتظر ضيوفًا على العشاء هذه الليلة. أحنيتُ عنقي وأرهفت سمعي، لكن مضيفَنا أراد أن يحتفظ بالمفاجأة. بعد ذلك خرجتُ للتمشية في حدائق الضيعة. أعتقد أنّني تهت. كنتُ أشعر بالبرد. بعد الحديقة تمتدُّ الحقول، الطبيعة البكر، ظلال أشجار كان يبدو أنَّها تناديني. كانت الرطوبة لا تُطاق. اكتشفتُ كوخًا، وربّما كان إسطبلًا، ولمحت ضوءًا في إحدى نوافذه. اقتربت. سمعت ضحكات

(1) الإله «بان» كان نصف إله للمراعي والصيد في الميثولوجيا الإغريقية. يظهر مصوَّرا بأرجل الماعز. وهو أيضًا إله الخصب والذكورة المفرطة. كما يشبه إلى حدٍّ كبير ديونيسوس أو باكوس، إله الخمر والنشوة والمسرح عند الإغريق.

(2) ديونيسوس أو باكوس، إله الخمر والنشوة والمسرح عند الإغريق. ويوصف بأنّه إله ذكر وأنثى في الوقت نفسه.

رجال واعتراض امرأة. باب الكوخ كان نصف مفتوح. سمعت نباح كلبٍ. طرقتُ، وبدون انتظار إجابة، دخلت الكوخ. رأيت ثلاثة رجال متحلِّقين حول مائدة، ثلاثة من عمّال فارويل، وبجانب فرن على الحطب كانت هناك امرأتان، إحداهما عجوزٌ والأخرى شابّة. عندما رأتاني اقتربتا وأخذتا يدي بين أيديهما الخشِنَة. يا لَسعادتنا بمجيئك يا أبتِ، قالت الأكبر سنًّا بينما تركع أمامي وتحمل يدي إلى شفتَيها. شعرت بالخوف والتقزّز، لكنّني تركتها. كان الرجال قد نهضوا. قال أحدهم: اجلِس أيُّها الأب الشابّ. حينئذٍ فقط انتبهت، مرتعشًا، إلى أنّني ما زلتُ أرتدي الرداء الكهنوتي الذي بدأت به سفري. وسط ارتباكي كنتُ متأكِّدًا أنّني خلعتُه عندما صعدت إلى الغرفة التي خصّصها فارويل لي. لكنَّ الحقيقة أنّني فكرتُ فقط في تغيير ملابسي ولم أقم بهذا ثم نزلت إلى الاجتماع من جديد مع فارويل في صالة الصيد. وفكّرت أيضًا، هناك، في إسطبل الفلاحين، أنّني لن أجد وقتًا لتغيير ملابسي قبل الطعام. وفكّرت أنَّ فارويل سيُكوّن انطباعًا خاطئًا عنّي. وفكّرت أنّ الشاعر الشابّ برفقته سوف يرسم صورة خاطئة عنّي. وفي النهاية فكّرت في الضيوف الذين ما زالوا مفاجأة، وكانوا من دون شكٍّ شخصيّات مهمّة، ورأيت نفسي بالرداء المغطّى بغبار الطريق، وسخام القطار، وتراب الطرق المؤدية إلى «لا ـ باس»، آكُل منزويًا في ركن بعيد على المائدة من دون أن أجرؤ على أن أرفع عيني. وآنذاك سمعت صوتَ أحد

الفلّاحين يدعونني إلى الجلوس مجددا. وكالنائم جلست. وسمعت صوت إحدى المرأتين يقول لي أبتِ خذ هذا، أو أبتِ خذ ذاك. وشخص ما حدّثني عن طفل مريض، لكن بلكنة غريبة لدرجة أنّني لم أفهم إن كان الطفل مريضًا أم أنّه ميت بالفعل. ولِمَ تحتاجونني؟ هل الطفل يحتضر؟ إذن اطلبوا طبيبًا. هل مات الطفل منذ زمن بعيد؟ إذن فلتصلّوا للعذراء صلاة الموتى لتسعة أيّام من أجله. فلتنظّفوا قبره. ولتزيلوا الأعشاب التي تنبت في كلّ مكان. فليكن حاضرًا في صلواتكم. يا إلهي، لا يمكنني أن أكون موجودًا في كلّ مكان. لا يمكنني. هل تمّ تعميده؟ سمعت نفسي أقول. نعم، يا أبت الشابّ. آه، إذن كلّ شيء على ما يرام. هل تريد خبزًا يا أبت الشابّ؟ سأتذوّقه، قلت. وضعوا أمامي شريحةً رفيعةً من الخبز. ناشفًا، كما هو خبز الفلّاحين عادة، محمّصًا في فرن من الطين. وضمت قطعة بين شفتَيَّ. وفي تلك اللحظة بدا لي أنّني أرى الشابَّ الهَرِمَ في فتحة الباب. لكنّه كان التوترُ فقط. كنّا في نهاية عقد الخمسينيات، ويجب أنَ يكون عمرَه في ذلك الوقت خمس سنوات فقط، ربّما ستًّا، ولم تكن له علاقة بالترويع أو التشهير أو المطاردة. هل يعجبك الخبز يا أبت؟، قال أحد الفلّاحين. بلّلتُه باللعاب. جيِّد، قلتُ، لذيذٌ للغاية، شهيٌّ للغاية، متعةٌ للفم، طعامٌ فاخر، منتَجٌ وطني رائع، طعام جيّد لفلّاحينا المجتهدين، لذيذ، لذيذ. والحقيقة أنّ الخبز لم يكن سيّئًا وأنا كنتُ بحاجة إلى الطعام، كنت بحاجة إلى ملء معدتي، وهكذا

شكرت الفلّاحين على هديّتهم ثم نهضت، رسمت صليبًا في الهواء، قلت فليباركِ الربُّ هذا البيت، وذهبتُ بخطًى سريعة. عندما خرجت سمعت من جديد نباح الكلب وحفيف أغصانٍ، كأنَّ وحشًا يختفي بين الأشجار، ومن هناك كانت عيناه تتابعان خطواتي المتعثّرة بحثًا عن بيت فارويل الذي رأيته في الحال، مضيئًا كأنَّه سفينةٌ عابرةٌ للمحيطاتِ في ليل جنوب العالم. عندما وصلت لم يكن العشاء قد بدأ. وبقرارٍ شجاعٍ حاسمٍ قرَّرت ألَّا أخلعَ ردائي. تجوّلت لفترة في مُتحفِ الصيد، متصفِّحًا بعضَ الكتب المطبوعة في نهايات القرن السادسَ عشرَ وبدايات القرن السابعَ عشرَ. أحد الجدران كان يجمع أفضل الأشعار والسرديات التشيلية وأشهرها، كلُّ كتابٍ مُهدًى من مؤلِّفه إلى فارويل بعبارات لطيفة، مهذَّبة، حميمة ومتواطئة. قلت لنفسي إنَّ مضيفي كان بلا شكٍّ المرفأَ الذي تلجأ إليه، لفترات طويلة أو قصيرة، كلُّ السفن الأدبية في الوطن، من اليخوت الرشيقة إلى سفنِ النقل الكبيرة، من سفن صيد السمك كريهةِ الرائحة حتَّى السفن الحربية الضخمة. لم تكن مصادفةً أنَّ بيته بدا لي منذ قليل كعابرةِ المحيطات! في الواقع، قلت لنفسي، كان ميناءً. بعد ذلك سمعتُ ضجَّة خفيفة، كأنَّ شخصًا يدلف خلسة إلى الشرفة. ملدوغًا بالفضول، فتحت أحد الأبواب وخرجت. كان الهواء يزداد برودةً، ولم يكن هناك أحدٌ، لكنِّني لمحتُ في الحديقة ظلًّا مستطيلًا كأنَّه تابوتٌ يسير باتّجاه ما يشبه التكعيبة، شيء سخيف

أقامه فارويل مع تمثال غريبٍ لشخص على صهوة جواد، صغير، ارتفاعه أربعون سنتيمترًا تقريبًا، من البرونز، كان يبدو كأنَّه منطلق من التكعيبة فوق قاعدة من الرخام الأحمر. كان القمر زاهيًا في السماء الخالية من السحب. الريح كانت تحرِّك ردائي. اقتربت بثبات من المكان الذي اختفى فيه الظلّ. رأيته بجانب تحفة فارويل الفروسية. كان يدير ظهره لي. مرتديًا سترةً من القطيفة وعلى رأسه قبّعة قصيرة الحافّة ملقاة إلى الخلف، مغمغمًا بتأثر بكلماتٍ لا يمكن إلَّا أن تكون موجّهة للقمر. كأنّني أصبحت ظلّ التمثال، بساقي اليسرى شبه مرفوعة. إنّه نيرودا. لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك. كان نيرودا هناك وأنا خلفه ببضعة أمتار في وسط الليل، القمر، تمثال الحصان، النباتات وأشجار تشيلي، فخرٌ ساذجٌ بالوطن. حكاية مثل هذه لا شكَّ أنَّ الشابَّ الهَرِم لا يمتلكها. هو لم يعرف نيرودا. هو لم يعرف أيَّ كاتب كبير في جمهوريتنا في ظروف شديدة الخصوصية كالتي ذكرت الآن. ماذا يهمّ ما حدث من قبل وما سيحدث من بعد. هناك كان نيرودا يلقي أشعارًا للقمر، لعناصر الأرض والنجوم التي نجهل طبيعتها لكنّنا نشعر بها. وأنا كنت هناك، مرتعدًا من البرد داخل ردائي الذي بدا لي في تلك اللحظة أكبر بكثير من مقاسي، كاتدرائية أسكنها عاريًا وبعينين مفتوحتين. كان نيرودا هناك، يلوك كلمات تفوق إدراكي لكنّني شعرت بروحها من أوّل لحظة. وكنت هناك، بالدموع في عينيّ. راهبٌ مسكينٌ، تائه في أرض الوطن الفسيحة،

مستمتع بشكل لا يُوصف بكلمات شاعرنا الأكبر. والآن أسأل نفسي، متكئًا على مرفقي، هل شهد الشابُّ الهَرِم موقفًا كهذا؟ أسأل نفسي جدِّيًا، هل عاش طيلة حياته مشهدًا كهذا؟ لقد قرأتُ كتبه، خفية وبحذر، لكنّني قرأتها. ولا يوجد بها شيء كهذا. الانحراف نعم، مشاجرات في الشارع، ميتات مرعبة في الأزقّة، جَرعة الجنس التي كانت تلك الأوقات تتطلّبها، بذاءات وفُحش، شروق شمس في اليابان، ليس في الوطن، جحيم وفوضى. يا لَذاكرتي المسكينة. يا لَسمعتي المسكينة. كان العشاء بعد ذلك. لا أتذكّر منه شيئًا. نيرودا وزوجته. فارويل والشاعر الشابّ. أنا. أسئلة. لماذا أرتدي رداءً؟ ابتسامتي عريضة. لم يكن لديَّ وقتٌ لتغيير ملابسي. يُلقي نيرودا قصيدة. هو وفارويل يتذكّران مقطعًا شديدَ الصعوبة لجونجورا[1]. وبالطبع، اتّضح أنّ الشاعر الشابّ من محبّي نيرودا. يُلقي نيرودا قصيدةً أخرى. كان العشاء شهيًّا. سلطة تشيلية، لحوم حيوانات مُصطادة حديثاً مع صلصة بيرنيس فرنسية، ثعبان مائي في الفرن، طَلَبَه فارويل من الساحل. نبيذ من إنتاج البيت. إطراءات. جلسة ما بعد العشاء امتدّت حتّى ساعات

---

(1) Luis de Góngora y Argote (1561-1627) شاعرٌ، وكاتبٌ مسرحيٌّ إسباني، من «العصر الذهبي». جمع بين سلك الكهنوت وكتابة الشعر والمسرح. حاز بنشاطه الأدبي على شهرة كبيرة ساعدته في الترقّي داخل الكنيسة. بعض أعماله الشعرية كانت تتّسم بسوداوية كبيرة وأثارت جدلا كثيرا وقت ظهورها. كان يولي اهتمامًا كبيرًا بالأسلوب وجماليات الكتابة الباروكية ممّا أدّى إلى أن ينسب لاسمه تيارٌ أدبيٌّ (الجونجوريسمو)..

متأخّرة من الليل، وفيها كان فارويل وزوجة نيرودا يضعان أسطوانات في جرامافون أخضر اللّون، يقوم بدور الشاعر. تانجو. صوت كريه ينثر حكاياتٍ كريهة. فجأة، ربّما بسبب الإفراط في الشراب، شعرت بالإعياء. أتذكّر أنّني خرجت إلى الشرفة وبحثتُ عن القمر الذي كان موضع سرٍّ شاعرنا منذ قليل. استندتُ على أصيص ضخمٍ فيه زهرةُ الجيرانيو (إبرة الراعي) وتحكّمت في غثياني. شعرت بخطواتٍ خلف ظهري. التفتّ، كان ظلُّ فارويل الهوميري يراقبني بيديه على خصره. سألني إن كنتُ متعبًا. قلت له لا، ليس أكثر من اضطراب عابر سيتكفّل هواء الريف النقي بالقضاء عليه. برغم أنّه كان في مكان مظلم، أدركت أنّ فارويل كان يبتسم. سمعت نغمات تانجو مكتومةً وصوت نشاز غناءه شكوى. سألني فارويل عن رأيي في نيرودا. ماذا تريد أن أقول، أجبت، إنّه أكبر الشعراء. لبرهةٍ بقينا في صمت. بعد ذلك تقدّم فارويل خطوتين باتجاهي ورأيت وجهه العجوز كإلهٍ إغريقي على ضوء القمر. احمَرّ وجهي بشدّة. كانت يد فارويل قد ارتاحت خلال ثانية على خصري. حدّثني عن ليل الشعراء الإيطاليين، ليل ايكابوني دا تودي. عن ليل «المتطهّرين»[1]، هل قرأتهم؟ تلعثمت. قلت إنّني قرأت في مدرسة اللاهوت وبشكل عابر كلًّا من جياكومينو دا فيرونا وبدرو

---

(1) يقصد بهم مَن يقومون بضرب أنفسهم بالسياط. في الغالب هي إشارة للنزعة الدينية لدى الشعراء الإيطاليين في تلك الفترة.

دا بيساكبيه وبونفسين دي لا ريفا. حينئذٍ تلوَّت يد فارويل مثل دودة شطرتها مجرفةٌ إلى جزأين ورفعها عن خصري، لكنّ الضحكة لم تفارق وجهه. وسورديللو[1]، قال. أي سورديلو؟ الشاعر الجَوّال، سورديلو أو سورديل. لا، قلت. انظر إلى القمر، قال فارويل. ألقيت نظرة سريعة. لا، ليس هكذا، قال فارويل. دُر وانظر إليه. درت. سمعت صوت فارويل كالفحيح خلف ظهري: سورديللو، أي سورديللو؟ الذي شرب مع ريكاردو دي سان بونيفاسيو[2] في فيرونا ومع ايزلينو دا رومانو[3] في تريفيزو، أيّ سورديللو؟ (وفي تلك اللحظة عادت يد فارويل لتضغط

---

(1) Sordello da Goito أو Sordel de Goit أو Sordell

كان شاعرا جوالا إيطاليا من مدرسة الشعر البروفنسي والحب العذري، في القرن الثالث عشر. زار إسبانيا بين 1237 و1242 والتحق ببلاط العديد من الملوك. كافأه كارلوس دي أنجو بإقطاعية بعد أن صاحبه في غزوته إلى صقلية. يظهر سورديلو في «الكوميديا الالهية» لدانتي. كما تمّ ذكره في بعض أعمال صامويل بيكيت وعزرا باوندا.

(2) Ricardo de San Bonifacio

الكونت، حاكم فيرونا. لأسباب سياسية تزوّج من كونيزا دي رومانو، التي تظهر في الكوميديا الإلهية لدانتي. توجد روايتان لعلاقة سورديلّو بريكاردو وزوجته. الأولى أنّ الخلاف بين العائلتين الكبيرتين لم يهدأ. فقامت عائلة كونيزا بتكليف الشاعر باختطافها، وبعد أن أتمَّ مَهمّته نشأت بينهما علاقة عاطفية. الرواية الثانية أنّه قام بإغواء الزوجة وهرب معها من إيطاليا ليبتعد عن مطاردة زوجها ريكاردو.

(3) Ezzelino III da Romano (1194-1259)

كان حاكم «تريفيزو» في إقليم لومبارديا بإيطاليا. كان ديكتاتورا وأطلق عليه لقب (الشرس) و(المرعب) لقيامه بالتعذيب. مذكور في الكوميديا الإلهية.

خصري)، الذي حارب مع رامون بيرينجير[1] وكارلوس الأول دي أنجو[2]، سورديللو الذي لم يعرف الخوف، لم يعرف الخوف، لم يعرف الخوف. وأتذكّر أنّني كنت واعيًا بخوفي في تلك اللحظة، لكنّني فضّلت مواصلة النظر إلى القمر. لم تكن يد فارويل التي ارتاحت على مؤخّرتي هي سبب فزعي. لم تكن يده، لم يكن الليل الذي يتحرّك فيه القمر أسرع من الريح الهابطة من الجبال، لم تكن موسيقى الجرامافون الذي كان يلقي بأغاني التانجو الكريهة واحدة بعد الأخرى، لم يكن صوت نيرودا وزوجته وتلميذه النابه، لكن شيئًا آخر. لكن يا عذراء الكارمن، ما هو؟ سألت نفسي في تلك اللحظة. سورديللو، أي سورديللو؟ كرّر صوت فارويل بفحيح خلف ظهري، سورديللو الذي غناه دانتي، سورديلو الذي غنّاه باوند، سورديللو صاحب تعاليم الشرف[3] سورديللو صاحب قصيدة الرثاء[4] في موت بلاكاتز[5] وفي تلك اللحظة تحرّكت يد

---

(1) Ramón Berenguer I (1023-1076) كونت برشلونة وجيرونة. كان يطلق عليه (حِمى الشعب المسيحي وحصنه). تعرّف عليه سورديلو عندما زار إسبانيا والتحق ببلاطه.

(2) Carlos I باريس، فرنسا. ويطلق عليه Carlos de Anjou أول ملوك أسرة أنجو ـ صقلية. أسّس إمبرطورية كبيرة في البحر المتوسط لكنّها اندثرت سريعًا. كان الأخ الأصغر للويس التاسع ملك فرنسا. وشارك في الحملة الصليبية على مصر بين 1248 و1254.

(3) ترك سورديلو قصيدة عنوانها «تعاليم الشرف» مكوّنة من 1325 سطرًا، بالإضافة إلى 42 قصيدة غنائية معظمها في الحبِّ والهجاء.

(4) planh أو plaing نمط شعري في الرثاء يستخدمه الشعراء الجوّالون. ويميّز النقاد بين ثلاثة أنواع منه: الرثاء المكتوب عن الشخصيات الهامة، عن العائلة والأصدقاء، وعن العشّاق.

(5) Blacatz III أو Blacas (1165-1237) أحد ملاّك الإقطاعيات الفرنسيين، وكان

فارويل من فخدي إلى إليتي، واجتاحت الشرفة هباتٌ من زفير أوغادٍ بروفنسيين، وتلاعبت بردائي الأسود وفكرت: آي، لقد مرّت المرّة الثانية على خير. انظر، المرّة الثالثة ستقع الآن. وفكّرت: كنت واقفًا على رمال الشاطئ. ورأيت وحشًا يخرج من البحر. وفكّرت: حينئذٍ جاء أحد الملائكة السبعة الذين يحملون السبع كؤوس وكلّمني[1]. وفكّرت: جاء لأن خطاياه وصلت حتّى السماء وتذكّر الربّ معاصيه. وفي تلك اللحظةِ نفسها، سمعتُ صوت نيرودا، الذي كان في ظهر فارويل، مثلما كان فارويل في ظهري. وسأله شاعرنا عن أيّ سورديبو[2] وأي بلاكاتز كنّا نتحدّث، والتفت فارويل إلى نيرودا وأنا التفتّ إلى فارويل ولم أر إلا ظهره محمّلًا بثقل مكتبتين، ربّما ثلاث، ثم سمعت صوت فارويل يقول سورديبو؟ أي سورديبو؟ وصوت نيرودا الذي كان يقول هذا بالتحديد ما أريد أن أعرف، وصوت فارويل الذي كان يقول ألا تعرف يا بابلو؟، وصوت نيرودا يقول لا، يا ثقيل الظلّ، لا أعرف، وصوت فارويل الذي كان يضحك وينظر إليّ، نظرة متواطئة لا خجل فيها، كأنّه يقول لي فلتكن شاعرًا إن كنت تريد، لكن اكتب نقدًا أدبيًّا واقرأ، نقّب، اقرأ، نقّب، وصوت نيرودا يقول، هل ستخبرني أم لا؟، وصوت فارويل الذي كان

شاعرًا جوّالًا أيضًا. عند وفاته كتب فيه سورديلو قصيدة رثاء يدعو فيها الملك لأن يأكل قلب بلاكتز وبهذه الطريقة يكتسب شيئا من شجاعته.

(1) تناص وإحالة إلى سفر الرؤيا 17، حيث ترد قصّة عاهرة بابل.

(2) تغيير النطق مقصود من المؤلّف.

يُلقي بعض أبيات الكوميديا الإلهية، وصوت نيرودوا الذي كان يتلو أبياتًا أخرى من الكوميديا الإلهية، لم يكن لها علاقة بسورديو. وبلاكاتز؟ دعوة إلى أكل لحوم البشر، قلب بلاكاتز الذي يجب أن نأكل منه كلّنا، ثم تعانق نيرودا وفارويل وألقيا معًا، بصوت واحد بعض أشعار روبين داريو، بينما الشاعر الشابّ وأنا نؤكّد أن نيرودا هو أفضل شعرائنا، وأنّ فارويل هو أفضل نقّادنا الأدبيّين، وتوالت الأنخاب مرّة وأخرى. سورديو؟ سورديل، سورديو؟ أي سورديو؟ طوال عطلة نهاية الأسبوع كانت هذه النغمة تتبعني أينما ذهبت، خفيفة ومبهجة، سريعة ولطيفة. في الليلة الأولى في «لا ـ باس» نمت مثل الملائكة، في الليلة الثانية قرأت حتَّى وقت متأخّر «تاريخ الأدب الإيطالي في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر». صباح يوم الأحد جاءت عربتان بضيوف آخرين. كلّهم كانوا يعرفون نيرودا وفارويل وحتَّى الشابّ المحبّ لنيرودا، ما عداي، ممّا جعلني أستغلّ تلك اللحظة العاطفية التي لا علاقة لي بها لكي أتوه مع كتاب في الغابة التي تمتدّ على يسار بيت الضيعة الرئيسي. على الجانب الآخر، من فوق ما يشبه التلّ، لكن من دون الابتعاد عن تخوم الغابة، كان يمكن رؤية حقول عنب فارويل، أرضه المحروثة وتلك التي ينبت فيها القمح والشعير. على طريق متعرّج بين المراعي، رأيت فلَّاحَين على رأسيهما قبّعتان من القشّ، ثم اختفيا بين بعض أشجار الصفصاف. وراء الصفصاف

توجد أشجار شاهقة الارتفاع، كأنّها تخترق السماء الزرقاء الخالية من السحب. ووراءها تنهض الجبال الكبيرة. صليت «أبانا الذي في السماوات». أغمضت عينيّ. لا يمكنني أن أطلب أكثر من هذا. ربّما خرير نهر. غناء الماء الصافي فوق الأحجار. عندما عدت للطريق عبر الغابة كانت لا تزال تتردّد في أذني سورديل، سورديبو، أي سورديبو؟ لكن شيئًا ما داخل الغابة كان يقطع الوحي الموسيقى والبهجة. خرجت من الجانب الخاطئ. لم أكن أمام البيت الرئيسي وإنّما وسط بعض الحقول التي يبدو أنّها متروكة لرحمة الربِّ. سمعت، من دون دهشة، نباح بضعة كلاب لم أكن أراها، وعندما عبرت الحقول، رأيتُ تحت الظلّ الواقي لبعض أشجار الأدفوكات أرضًا مزروعة بكلّ أنواع الخضروات والفاكهة، جديرة بلوحة لـ«أرشيمبولدو»[1]، لمحتُ طفلًا وطفلة كأنّهما آدم وحواء يلعبان عاريين بجوار حفرة في الأرض. نظر إليّ الطفل: كان خيطٌ سميك من المخاط يهبط من أنفه إلى صدره. أبعدت عينيّ بسرعة لكنّني لم أستطع التخلّص من شعور رهيب بالغثيان. شعرت أنني أسقطُ في الفراغ، فراغٍ معويٍّ، فراغٍ مكوّنٍ من المعدة والأمعاء. في النهاية، عندما استطعت التحكم بالتقيؤ كان الطفل والطفلة قد اختفيا. بعد ذلك

Giuseppe Arcimboldo, (1527 – 1593) (1)

رسّام إيطالي مشهور برسم وجوه مرصّعة أو مكوّنة من نباتات وخضر وفاكهة وتوليفها في صورة الشخص المرسوم بحيث تشبهه في النهاية.

وصلت إلى ما يشبه حظيرة الطيور، برغم أنّ الشمس كانت لا تزال في السماء رأيت الدجاج كلَّه راقدًا على سيقانه القذِرة. سمعتُ نباح الكلاب من جديد، وحفيفَ جسدٍ كبيرٍ إلى حدٍّ ما يدخل عنوة بين الأغصان المتشابكة. عزوته للرياح. على مبعدة يوجد إسطبل وحظيرة للخنازير. درت حولهما. على الجانب الآخر توجد شجرة صنوبر منتصبة. ماذا تفعل هنا شجرة شديدة العظمة والجمال. إرادة الله جاءت بها إلى هنا، قلتُ لنفسي. استندتُ على شجرة الصنوبر وتنهّدت. بقيت هكذا لفترة حتَّى سمعت أصواتًا بعيدةً للغاية. تقدّمت مطمئنًا إلى أنَّ تلك هي أصوات فارويل ونيرودا وضيوفه الّذين كانوا يبحثون عنّي. عبرت قناة تجري فيها مياه آسنة. رأيت عشب القُرَّاص، وكلَّ أنواع الأعشاب البرية، ورأيت أحجارًا يبدو أنَّها موجودة في مكانها عفوًا، لكنَّ ترتيبَها يوحي بإرادة بشرية. من وضع تلك الأحجار بهذه الطريقة؟ سألتُ نفسي. تخيّلت طفلًا مرتديًا سترةً رثّة، من صوف الغنم، واسعة عليه، يتحرّك مفكّرًا وسط تلك العزلة المطلقة التي تسبق هبوط المساء في الريف. تخيّلت فأرًا. تخيّلت خنزيرًا بريًّا. تخيّلت نسرًا ميّتًا في وادٍ صغير لم يطأه البشر. اليقين من تلك العزلة المطلقة لم يتبدّل. بعد القناة، على حبل معلق بين شجرتين، رأيت ملابس مغسولة منذ وقت قصير، تحرِّكها الريح وتنثر رائحة صابون رخيص. نحيّت الملاءات والقمصان جانبًا وعلى بعد ثلاثين مترًا تقريبًا رأيت امرأتين وثلاثة

رجـال، واقفين في شبه دائـرة غير منتظمة، وأيديهم تغطّي وجوههم. هذا ما كانوا يفعلونه، يبدو مستحيلًا، لكن هذا ما كانوا يفعلونه. كانوا يغطّون وجوههم! برغم أنّ الإيماءة دامت وقتًا قليلًا. وعندما رأوني أخذ ثلاثة منهم يسيرون نحوي. المنظر (وكلّ ما يعنيه)، برغم قصره، استطاع أن يقضي على اتزاني العقلي والجسدي، وعلى حالة التوازن السعيدة التي منحني إيّاها التأمّل في الطبيعة قبل دقائق. أتذكّر أنّني رجعت إلى لخلف. تعثّرت في ملاءة فالتَفَتُّ حولي. طوحت يدي مرّتين وكدت أقع على ظهري لولا أنّ أحد الفلّاحين قبض على معصمي. رسمت ابتسامة شكر حائرة. هذا ما أحتفظ به في ذاكرتي. ابتسامتي الخجول، أسناني المرتعشة، صوتي الذي يجرح صمت الحقول معبّرًا عن الشكر. المرأتان سألتا إن كنت متعبًا. كيف حالك، يا أبت الشابّ؟ قالتا. ودهشتُ لتعرّفهما عليّ، لأنني لم أرَ سوى امرأتين، في اليوم الأول، ولم تكونا هاتين. كما لم أكن مرتديًا ردائي. لكنّ الأخبار تطير، وهاتان المرأتان اللتان لا تعملن في «لا ـ باس»، وإنّما في ضيعة قريبة، كانتا تعلمان بوجودي وربّما تكونان قد جاءتا إلى عزبة فارويل على أمل أن يُقام قدّاس، وهو أمر كان من الممكن لفارويل أن يتيحه من دون عقبات كثيرة، حيث توجد في الضيعة كنيسةٌ صغيرة، لكنّ هذا لم يخطر على بال فارويل بالطبع، ربّما لأنّ ضيف الشرف كان نيرودا، الذي كان يفخر بأنّه ملحدٌ (وهو ما أشكّ فيه)، ولأنّ الغرض من العطلة

كان أدبيًّا ولم يكن دينيًّا، وهو ما أتّفق معه تمامًا. لكنّ الواقع أنّ هاتين المرأتين مَشَتا بين المراعي، وفي الطرق الضيقة والتفّتا حول الحقول المزروعة لكي ترياني. وأنا كنت هناك. ولقد رأتاني ورأيتهما. وماذا كان ما رأيت؟ آذان، شفاه مشقّقة، فكوكٌ لامعة. رأيت صبرًا لم يبدُ لي نابعًا من الأخلاق المسيحية. كأنّه صبر آتٍ من آفاق أخرى. لم يكن صبرا تشيلياً، برغم أنّ هاتين المرأتين كانتا تشيليتين. صبر لم ينبع من بلدنا ولا من القارة الأمريكية ولم يكن حتّى صبرا أوربيا، ولا آسيويًّا ولا أفريقيا (برغم أنّ هاتين الثقافتين الأخيرتين مجهولتان تمامًا بالنسبة لي). كأنّه صبر آتٍ من الفضاء الخارجي. وذلك الصبر كان على وشك أن يتجاوز صبري. وانتشرت كلماتهنّ، وغمغمتهنّ، تنثرها الريح في الحقول، تنثرها الريح بين الأشجار، تنثرها الريح بين الأعشاب، تنثرها الريح إلى نبت الأرض. وأنا أشعر بنفاد صبري مع مرور الوقت، فقد كانوا ينتظرونني في البيت الكبير، وربّما كان شخص، فارويل أو شخص آخر يسأل عن سبب غيابي الذي كان قد طال. والمرأتان كانتا تبتسمان فقط أو تتظاهران بالجدّية أو المفاجأة المصطَنَعة، وجهاهما الخاليان من التعبيرات، كانا ينتقلان من الغموض إلى البوح، كان وجهاهما يتقلّصان بتساؤلات صامتة أو ينبسطان بالإعجاب من دون كلمات، بينما كان الرجلان اللذان قد بقيا في الخلف يبدآن بالمسير، لكن ليس في خطّ مستقيم، لم يكونا متّجهين إلى الجبال، وإنّما في مشي

متعرّج، ويتحدّثان معًا، ومن وقت لآخر يشيران إلى نقاط بعيدة في الحقول، وكأنّ الطبيعة تثير فيهما أيضًا ملاحظات فريدة جديرة بالتعبير عنها بصوتٍ عالٍ. والرجل الذي جاء مع المرأتين للقائي، ذلك الذي أمسكت حوافره بمعصمي، ظلّ واقفًا على مسافة بضعة أمتار، بعيدًا عنّي وعن المرأتين، لكنّه أدار رأسه وتابع بعينيه ابتعاد زميليه، كأنّ ما يفعله أو يراه الآخران قد أثار اهتمامه فجأةً بشكلٍ غيرِ عادي، كان يحدّ من بصره لكي لا يفقدَ أيَّ تفصيلة. أتذكَّر أنَّني تأمَّلت وجهه. أتذكّر أنّني شربت وجهَه حتَّى الثمالة محاولًا التكهُّن بشخصيته، نفسية شخص كهذا. مع هذا، الشيء الوحيد الذي تبقّى منه في ذاكرتي، كان قبحه. كان قبيحًا، بعنق شديد القصر، في الحقيقة كانوا كلّهم قبيحين. الفلّاحتان كانتا دميمتين، وكلماتهنّ غير مترابطة. الفلّاح الهادئ كان قبيحًا وسكونه بلا معنًى. الفلّاحان اللذان كان يبتعدان كانا قبيحَين ومسيرتُهما على نحو متعرّج بلا معنًى. فليغفِر لي الربُّ، وليغفر لهم. أرواحٌ ضائعة في الخلاء. أعطيتُهم ظهري ومشيت. ابتسمت لهم، قلت لهم شيئًا، سألتهم كيف يمكن الوصول إلى البيت الكبير في «لا ـ باس» ومشيت. أرادت إحدى المرأتين أن تصحَبني. رفضت. أصرّت المرأة، أنا سأقودُك أيُّها الأب الشابّ، قالت، والفعل «يقود» منطوقًا بمثل تلك الشفاه، سبّب لي حالةً من الضحك هزّت كلّ جسدي. أنت ستقودينني، يا ابنتي؟ أنا بنفسي، قالت. أو «أنا بنافسي». أو شيئًا ما زالت ريح نهاية

الخمسينيات تحرّكه في الأركان اللانهائية لذاكرة ما لا تخصُّني. على أيِّ حال كنت أهتزُّ من الضحك، ارتعشت من الضحك. ليس ضروريًّا، قلت. هذا يكفي، قلت. هذا يكفي اليوم، قلت، وأعطيتهم ظهري ومشيت بنشاط، بخطًى سريعة، محرِّكًا ذراعي، مع ابتسامةٍ ما إن تجاوزتُ خطَّ الملابس المنشورة حتَّى تحوّلت إلى ضحكة صريحة، مثلما تحوّلت خطواتي إلى قفزات كأنَّها خطوات عسكرية. في حديقة «لا ـ باس»، تحت سقيفة من الخشب الثمين، كان ضيوف فارويل يسمعون إلقاء نيرودا. في صمتٍ، جلست إلى جانب تلميذه الشابّ، الذي كان يدخّن بهيئة كئيبة، بتركيز شديد، بينما كلمات النجم تخترق طبقات الأرض المتعدّدة أو ترتفع حتَّى عوارض السقيفة المنحوتة، وأكثر من هذا، حتَّى السحب البودليرية التي كانت تتهادى واحدة وراء الأخرى في سماء الوطن الصافية. في السادسة مساءً غادرت «لا ـ باس» بعد انتهاء زيارتي الأولى. سيّارة أحد ضيوف فارويل حملتني حتَّى «تشيان»، بالكاد لحقت بالقطار الذي عاد بي إلى سانتياجو. لقد تمَّ تعميدي في عالم الأدب. خيالات كثيرة، في الغالب متناقضة، تجلّت لي في الليالي التالية، أثناء التأمّل والأرق. كثيرًا ما كنتُ أرى خيال فارويل، أسودَ وواضحًا، مرتسمًا في فتحة باب كبير للغاية. كانت يداه في جيبه، ويبدو أنّه يرقب مرور الوقت بتمعُّن. كما كنت أرى فارويل جالسًا في مقعد كبير في ناديه، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، متحدِّثًا عن الخلود

الأدبي. آه، الخلود الأدبي. في أوقاتٍ أخرى كنت أرى مجموعةً من الأشخاص في صَفّين، كلًّا منهم يمسك خصر مَن يتقدّمه، كأنّهم يرقصون «الكونجا»[1]، يتحرّكون بطول وعرض صالون حوائطُه تكتظُّ باللوحات. ارقص، يا أبت، كان يقول لي شخص لا أراه. لا أستطيع، القَسَم يمنعني. كان في يدي كراسة صغيرة، وباليد الأخرى كنتُ أكتب الخطوط العريضة لمقال أدبي. الكتاب عنوانه «مرور الزمن». مرور الزمن، مرور الزمن. صرير السنين، انهيار الأحلام، الهاوية المهلكة للتطلُّعات من كلّ نوع ما عدا غريزة البقاء. ثعبان رقصة الكونجا المتناغم كان يقترب من ركني بلا كلل، في حركة دائمة ويرفع بتناسق الساق اليسرى أولًا، ثم اليمنى، ثم اليسرى، ثم اليمنى، حينئذٍ رأيت فارويل بين الراقصين، فارويل الذي كان يمسك بخصر سيّدة من أرقى طبقات المجتمع التشيلي في تلك السنوات، سيّدة تحمل لقب عائلة (باسكي)، نسيته ويا للأسف، بينما كان هو بدوره ممسوكًا من خصره من عجوز يبدو جسدُه على وشك السقوط، عجوز أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، لكنّه كان يوزّع ابتساماته يمنة ويسارا ويبدو أنّه كان أكثر المستمعين بالرقص. في أوقات أخرى كانت خيالات طفولتي ومراهقتي تعود، وكنت أرى ظلَّ أبي متسحِّبًا في أروقة البيت كأنّه ابن عرس أو نِمس، أو ربّما على الأصحّ ثعبانٌ مائيٌّ محبوسٌ في وعاء غير مناسب. صوت يقول:

---

(1) رقصة كوبيّة من أصل أفريقي.

أيّ كلام، أيّ حوار، ممنوع. أحيانًا كنت أسأل نفسي عن طبيعة ذلك الصوت. هل كان صوتَ ملاكٍ؟ هل كان صوتَ ملاكي الحارس؟ هل كان صوت شيطان؟ لم أتأخّر في اكتشاف أنّه كان صوتي أنا، صوت أناي الأعلى الذي كان يقود حُلمي مثل سائقٍ أعصابُه فولاذية، كان أناي الأعلى يقود شاحنة مجمّدات وسط طريق من اللهب، بينما الـ«الهو» يعوي ويتكلّم بلكنة تبدو ميسينية[1]. «الأنا» كان نائمًا بالطبع. كان ينام ويعمل. في تلك الفترة بدأت العمل في الجامعة الكاثوليكية. في تلك الفترة بدأت أنشر قصائدي الأولى، ثم مقالاتي النقدية الأولى، ويومياتي حول الحياة الأدبية في سانتياجو. أرتكز على مِرفقي، أمدُّ عنقي وأتذكّر. «إنريكه ليهن»، ألمعَ أبناءِ جيله، «جياكوني»، «أوريبي أرثه»، «خورخي تيير»، «ايفرائين باركيرو»، «دليا دومينجث»[2]، «كارلوس دي روكها»[3]، الشباب الذهبي. كلّهم، تقريبًا كلّهم تحت تأثير نيرودا باستثناء القليلين الذين تأثّروا، أو بالأدقّ

---

(1) اليونانية الميسينية، مصطلح يُطلق على أقدم مراحل اللغة اليونانية بين القرنين 12 و16 قبل الميلاد.

(2) الكتّاب المذكورون من أعضاء (جيل 50) وهو الجيل الذي صنع قطيعة مع الإنتاج الثقافي التشيلي السابق. تأثر هذا الجيل بشكل خاصّ بالشاعر الأمريكي والت ويتمان والروائيين وليام فولكنر وإرنست هيمنجواي. وأيضًا تأثّروا بالرواية الكلاسيكية الروسية، خاصّة أعمال تولستوي وديستويفسكي. وكانت أفكار سيجموند فرويد مرجعًا لهم في التحليل النفسي.

(3) أصغر أعضاء جيل 1938، وجماعة (ماندراجورا) السريالية.

تتلمذوا على يد «نيكانور بارا»[1]. وأتذكّر أيضًا «روساميل ديل بايي». لقد عرفته، بالطبع. كتبت نقدًا عنهم جميعًا: «روساميل»، «ديـاث كاسانوبيا»، «براوليو اريـنـاس» وزملائهم في «ماندراجورا»[2]، عن «تيير» والشعراء الشباب القادمين من الجنوب الممطر، عن روائيي الخمسينيات، عن «دونوسو»، عن «ادواردز»، عن «لافوركادي». كلّهم أشخاص طيّبون، وكتّاب رائعون. وعن «جونثالو روخاس دي أنجيتا»، كتبت نقدًا عن «مانويل روخـاس»، وتناولتُ «خوان إيمار»، و«ماريا لويزا بومبال» و«مارتا برونيت». وكتبت دراسات وعروضا لأعمال «بلست جانا» و«أوجوستو دي هالمار» و«سلفادور رييس». وأخذت قرارًا، أو ربّما أكون قد قرّرت قبل ذلك، على الأرجح قبل ذلك، كلّ شيء في هذه اللحظة غامض ومشوش، أنّني يجب أن أتَّخذ اسمًا مستعارًا لأعمالي النقدية والاحتفاظ باسمي الحقيقي لكتاباتي الشعرية. ومن ثم اتّخذت اسم «هـ. ايباكاتشه». وشيئًا فشيئًا أصبح «هـ. ايباكاتشه» أكثر شهرة من «سيباستيان أوروتيا لاكروا»، وهو ما كان مدهشا بالنسبة لي، كما كان مُرضيًا

---

(1) Nicanor Parra (1914)

شاعر ورياضي وفيزيائي من تشيلي، كان لأعماله أثر عميق على الأدب في أمريكا اللاتينية. ويعتبره هارولد بلوم أحد أهم شعراء الغرب.

(2) Mandrágora

جماعة شعرية سريالية تأسست عام 1938 في تشيلي. وأصدروا مجلّة تحمل الاسم نفسه.

أيضًا، لأن أوروتيا لاكروا كان يجهز عملًا شعريًّا من أجل المستقبل، عملًا له طابع ديني لن يتبلور إلّا مع مرور السنين، معتمدًا على أوزان شعرية لم يعد يستخدمها أحد في تشيلي. ماذا أقول؟ لم يقم أيُّ شخص على الإطلاق باستخدامها في تشيلي من قبل. بينما كان هـ. ايباكاتشه يقرأ ويشرح قراءاته على الملأ، مثلما فعل فارويل من قبل، يقوم بجهدٍ تفسيري لأدبِنا، جهدٍ عقلاني، جهدٍ حضاري، جهدٍ ذي نبرة معتدلة وتصالحية، مثل مرشد متواضع على شاطئ الموت. لم يكن طهر ايباكاتشه كاملا، لكن هذا لا يجعله أقلَّ إثارة للإعجاب، حيث إنَّ ايباكاتشه كان من دون شكٍّ، بتفاصيله أو بمُجمله، نموذجٌ حيٌّ على الجهد البحثي والعقلانية، أي أنَّه قيمة حضارية، هذا الطهر البَيْنَ بين، يمكنه أن يسلّط الضوء بقوّة أكثر من أيِّ تدبير على العمل الذي كان يقوم أوروتيا لاكروا بخلقه شطرًا شطرًا، بطهر لا شائبة فيه. وفي مجرى الحديث عن الطهر، أو على ذكر الطهر، ذا مساءٍ، في بيت السيِّد «سلفادور رييس»[1]، مع خمسة مدعوِّين أو ستة آخرين، كان فارويل من بينهم، قال دون سلفادور إنَّ أحد أكثر الرجال نقاءً من الذين عرفهم في أوربَّا هو الكاتب الألماني

---

(1) Salvador Reyes Figueroa (1889-1970)

كاتب، وديبلوماسي تشيلي، ينتمي إلى جيل 1927. حاز على الجائزة الوطنية للأدب في 1967. نشر أوّل كتبه في 1923. وبدأ عمله الديبلوماسي في 1939 حيث شغل منصب القنصل في باريس.

«ارنست يونجر»[1]. فارويل، الذي ربَّما كان يعرف الحكاية، لكنَّه كان يريد أن أسمعها من السيِّد سلفادور، طلب منه أن يشرح كيف تعرّف على يونجر وفي أيِّ ظروف، فجلس دون سلفادور في مقعد كسوتُه مذهَّبة وقال إنَّ ذلك حدث من زمن بعيد، في باريس، خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان يعمل في السفارة التشيلية. ثم تحدّث عن حفل، لا أعرف الآن إن كان في سفارة تشيلي أم سفارة ألمانيا أم سفارة إيطاليا، وتحدّث عن امرأة رائعة الجمال سألته إن كان يريد أن يتعرّف على الكاتب الألماني الشهير. ودون سلفادور الذي أقدِّر أنَّ عمره في ذلك الوقت لم يتجاوز الخمسين عامًا، أي أنَّه أكثر شبابًا وقوّةً منِّي أنا الآن، قال نعم، بكلِّ سرور، قدِّميني له على الفور، يا جيوفانا، والإيطالية، الدوقة أو الكونتيسة الإيطالية، التي كانت تقدِّر شاعرنا الدبلوماسي، قادته عبر صالونات كثيرة، كلّ صالون يفتح على صالون آخر، كأزهار مسحورة، وفي الصالون الأخير كان هناك مجموعة من ضبّاط الجيش الألماني والعديد من المدنيّين ومحطّ اهتمام كلّ هؤلاء كان المقدّم يونجر، بطل الحرب العالمية الأولى، مؤلّف «عواصف فولاذية وألعاب أفريقية» و«فوق الجرف المرمري» و«هليوبوليس» وبعد سماع بعض

---

(1) Ernst Jünger (1895-1998)
كاتب، وفيلسوف، ومؤرّخ ألماني. كان ضابطًا بالجيش الالماني في باريس أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان يتردّد على الصالونات الثقافية الباريسية

البديهيات من الكاتب الألماني الكبير قامت الأميرة الإيطالية بتقديمه إلى الكاتب والدبلوماسي التشيلي، مع تبادل الآراء بالفرنسية بالطبع، وبعد ذلك قام يونجر في نوبة من اللباقة بسؤال كاتبنا إن كان يمكنه الحصول على أحد أعماله بالفرنسية، وهو ما ردّ عليه التشيلي بسرعة بالإيجاب، بالطبع، أحد كتبه مترجم للفرنسية، إن كان يونجر يرغب في قراءته، فمن دواعي سروره أن يقوم بإهدائه له، وهو ما ردّ عليه يونجر بابتسامة شكر وتبادلا بطاقات التعريف وحدّدا موعدًا للعشاء معًا أو للغداء أو للإفطار، حيث إنّ جدول مواعيد يونجر كان مليئًا بالارتباطات التي لا يمكن تأجيلها فضلًا عن الأمور الطارئة التي تحدث كلَّ يوم وتُلغي بشكلٍ لا رجعةَ فيه أيَّ التزام كان قد تمَّ الاتفاق عليه سلفًا، على الأقلِّ حدّدا موعدًا لتناول شاي الظهيرة، شاي على الطريقة التشيلية، قال دون سلفادور، لكي يعرف يونجر الفرق بين الغثِّ والثمين، ولكي لا يظنّ يونجر أنّنا ما زلنا هنا نتزيّن بالريش، بعد ذلك ودع دون سلفادور يونجر وذهب مع الكونتيسة أو الدوقة أو الأميرة الإيطالية، مرّة أخرى عبر الصالونات المتّصلة مثل زهرة سحرية تفتح أوراقها إلى زهرة سحرية أخرى تفتح أوراقها إلى زهرة زهرية أخرى وهكذا حتّى آخر الزمان. كانا يتحدّثان بالإيطالية عن دانتي وعن نساء دانتي، لكن في تلك الحالة، أقصد، بالنسبة لصُلب الموضوع، لم يكن هناك فرق لو كانا قد

تحدَّثا عن دي أنونزيو[1] وعاهراته. وبعد أيّام التقى دون سلفادور مع يونجر في غرفة رسّام جواتيمالي يعيش على سطح إحدى البنايات، ولم يستطع الخروج من باريس بعد الاحتلال، وكان دون سلفادور يزوره في أوقات متفرّقة ويحمل له في كلّ زيارة مؤنًا من مختلف الأصناف، خبزًا، باتيه، زجاجة نبيذ بوردو، كيلو اسباجيتي ملفوفًا في ورق خشن، شايًا وسكرًا، أرزًا وزيتًا وتبغًا، ما كان يجد في مطبخ السفارة أو في السوق السوداء، وهذا الرسّام الجواتيمالي الذي كان يعيش من عطف كاتبنا لم يتقدّم له بالشكر قطّ، حتَّى لو جاء دون سلفادور بعلبة من الكافيار ومربّى الكرز وشامبانيا، لم يكن يقول له قطّ شكرًا يا سلفادور، أو شكرًا يا دون سلفادور. لدرجة أنَّ شاعرنا الدبلوماسي حمل معه في إحدى الزيارات إحدى رواياته، رواية كان يفكّر في إهدائها لشخص آخر، من الأفضل الاحتفاظ بالاسم سرًّا، لأنَّ ذلك الشخص كانت سيّدة متزوِّجة، وعندما رأى الرسّام الجواتيمالي في اكتئاب شديدٍ قرّر إهداءه أو إعارته الرواية، وعندما عاد لزيارته، بعد مرور شهر، كانت الرواية، روايته، فوق المائدة نفسها أو الكرسي حيث تركها، وعندما سأله إن لم تكن قد أعجبته، أو هل وجد فيها عزاءً وسلوى، ردّ عليه هذا، مهمومًا وبدون رغبة، كما هي حاله

---

(1) Gabriele D'Annunzio (1863-1938)

شاعر، وروائي، وكاتب مسرحي وسياسي ومحارب إيطالي، اشتهر بعلاقاته النسائية المتعدّدة.

دائمًا، أنّه لم يقرأها، وهو ما ردّ عليه دون سلفادور بخيبة أمل الكتّاب (على الأقلّ الكتاب التشيليين والأرجنتينيين) الذين يجدون أنفسهم في موقف كهذا: إذن لم تعجبك يا رجل، وهو ما ردّ عليه الجواتيمالي أنّها لم تثر إعجابه ولا رفضه، ذلك انّه ببساطة لم يقرأها، ثم أمسك دون سلفادور بالرواية واستطاع أن يرى طبقة الغبار المتراكمة على الكتب (على كلّ الأشياء) عندما لا تُستخدم، وعرف في تلك اللحظة أنَّ الجواتيمالي كان يقول الحقيقة. لم يهتم، برغم أنّه تأخّر شهرين في الذهاب إلى السطح مرّة أخرى. وعندما ذهب كان الرسّام نحيفًا بشكلٍ لا مثيل له، كأنّه لم يذق الطعام طيلة هذين الشهرين، كأنّه يريد أن يترك نفسَه للموت بينما يتأمَّل باريس من نافذته. كان يعاني ممّا كان الأطباء يسمونه اكتئابًا، واليوم يوصف بفقدان الشهية، مرض تعاني منه في الغالب الشابات، الفتيات الصغيرات اللائي يحملهن الريح الدائم ويقذف بهن في شوارع سانتياجو المسحورة، لكن في تلك الأعوام وفي المدينة الخاضعة للسيطرة الألمانية، لم يكن يسمّى فقدان الشهية وإنّما الاكتئاب، مرض الاكتئاب، الداء الذي يصيب الجبناء، الذي كان الرسّامون الجواتيماليون الذين يعيشون في غرف سطح مظلمة عالية يعانون منه، وحينئذٍ تذكَّر دون سلفادور رييس كتاب روبرت بورتون «أعراض الاكتئاب»، وربَّما كان فارويل، لكن إن كان فارويل فقد كان بعد وقت طويل، حيث يذكر الكتاب أشياء صائبة حول تلك العلّة. وربّما في تلك

اللحظة سكت كلُّ الحاضرين هناك وخصّصنا دقيقة صمتٍ من أجل هؤلاء الذين رزحوا تحت نير الاكتئاب، هذا الاكتئاب الذي يحيط بي اليوم ويشعرني بالضعف ويجعلني على وشك البكاء عندما أسمع كلماتِ الشاب الهَرِم، وعندما صمتنا بدا وكأنّنا نشارك بتوافق شديد مع الحظِّ في تكوين صورة تبدو مستخرَجة من فيلم صامت، شاشة بيضاء، أنابيب اختبار وقوارير معملية، فيلم محروق، محروق، محروق. وفي تلك اللحظة تكلَّم دون سلفادور عن شيلينج (الذي لم يقرأه من قبل، كما قال فارويل)، الذي كان يتحدّث عن الاكتئاب كأنّه الرغبة في الخلود ـ توق ـ[1]، وذكر تدخُّلات جراحية حيث كان يتمُّ استئصال جزء من الألياف العصبية التي تربط المهاد (مركز المخّ) بالقشرة المخِّية للفصّ الأمامي، ثم عاد للحديث عن الكاتب الجواتيمالي، ضامر، متخشّب، غيرِ قادر على صلب طوله، ممصوص، نحيف، لحم على عظم، هزيل، غثّ، متداعٍ، ضعيفٍ، رفيع، بكلمة واحدة: شديد النحافة، لدرجة أن دون سلفادور أُصيب بالفزع، قال لنفسه هذا يكفي، يا فلان أو يا عِلّان، أو أيًّا ما كان اسم الرجل اللاتيني، وردّ فعله الأوّل كرجلٍ طيّب من تشيلي كان دعوته إلى العشاء أو إلى تناول الشاي، لكنَّ الجواتيمالي رفض متحجِّجًا بأنَّ الخروج إلى الشارع في تلك الساعة يصيبه بشيء ما، والدبلوماسي صرخ صرخةً وصلت للسماء، أو للسقف، وسأله منذ متى لم يأكل،

(1) بالألمانية في الأصل..

وردّ عليه الجواتيمالي أنّه أكل منذ وقت قصير، ومتى كان هذا الوقت القصير؟ لا أتذكّر، لكنّ دون سلفادور كان يتذكّر جزئية وهي تلك: عندما توقّف عن الكلام ووضع المؤن القليلة التي أحضرها في دولاب بجانب الموقد الصغير، أي، عندما ساد الصمت في غرفة الجواتيمالي وأصبح حضور دون سلفادور خفيفًا، منشغلًا بترتيب الطعام أو منشغلًا بالنظر مرّة أخرى إلى لوحات الجواتيمالي التي كانت معلَّقة على الحوائط أو منشغلًا بالجلوس مدخِّنا ومفكِّرًا بينما يدع الوقت يمرّ بعزمٍ (وبدون اكتراث) لا يمتلكه إلّا من أمضى وقتًا طويلًا في السلك الدبلوماسي أو في وزارة العَلاقات الخارجية، جلس الجواتيمالي على المقعد الآخر، الموضوع عن قصد بجانب النافذة الوحيدة، وبينما كان دون سلفادور يمضي الوقت جالسًا في المقعد الداخلي متأمِّلًا في المنظر الحيّ لروحه، كان الجواتيمالي المكتئب الهزيل يضيّع الوقت ناظرًا إلى منظر باريس المألوف والفريد. وعندما اكتشفت عينا كاتبنا الخطَّ غيرَ المرئي، نقطةَ الهروب التي كانت نظرةُ الجواتيمالي تقترب وتبتعد عنها، حسنًا، حسنًا، في تلك اللحظة مرَّ بروحه ظلُّ رعشةٍ، رغبة آنيّة في إغماض عينيه، أن يتوقّف عن النظر إلى هذا الكائن الذي كان ينظر إلى الشفق الباريسي المرتعش، الاندفاع إلى الهروب أو إلى عناقه، والرغبة (التي كانت تُخفي طمعًا له أسبابُه) في سؤاله عمَّا كان يراه والاستيلاء عليه في الحال، وفي الوقت نفسِه الخوف

من سماع ما لا يمكن سماعُه، الحقيقة التي لا يمكننا سماعها، وعلى الأرجح لا يمكن أن تُقال. وهناك، في تلك الغرفة على السطح، بمحض المصادفة، التقى سلفادور رييس بعد فترة مع ارنست يونجر، الذي ذهب إلى زيارة الجواتيمالي، مدفوعًا بحاسّة شمِّه المرهفة، وعلى الأخص بفضوله اللانهائي. وعندما عبر دون سلفادور باب مسكن الرجل اللاتيني، كان أوَّل ما رأى هو ارنست يونجر محشورًا في زيِّه الرسمي كضابطٍ في الجيش الألماني، مستغرقًا في تأمّل لوحةٍ حجمُها متران في مترين، لوحة زيتية رآها دون سلفادور مرّات لا حصرَ لها، وكانت تحمل الاسم العجيب «طبيعة من مدينة ميكسيكو قبل ساعة من الشروق»، لوحة متأثّرة بشكل فاضح بالسوريالية، الحركة التي انضمَّ لها الجواتيمالي بعزيمة تفوق النجاحَ الذي حقّقه، من دون الحصول أبدًا على الاعتراف الرسمي من مشاهير مدرسة بريتون، وبها يمكن ملاحظة تأثير هامشي لبعض الطبيعيّين الإيطاليّين، وأيضًا ميل معتاد في اللاتينيين غريبي الأطوار وشديدي الحساسية، نحو الرمزيين الفرنسيّين مثل ريدون أو مورييه. كانت اللوحة تصوّر مدينة ميكسيكو كما يمكن رؤيتُها من فوق تلٍّ وربّما من شرفة بناية عالية. الأخضر والرمادي كانا اللونين الغالبين. بعض الأحياء تبدو كالأمواج. أحياء أخرى كأنها نيجاتيف صورة فوتوغرافية. لا يمكن العثور على هيئات بشرية، لكن، هنا وهناك، توجد هياكل عظمية غير واضحة، يمكن أن تكون لأفرادٍ أو

لحيوانات. عندما رأي يونجر السيِّد سلفادور، تعاقب على وجهه تعبيرٌ خفيف عن الدهشة، متبوعٌ بتعبير عن السعادة، خفيفٌ أيضًا. بالطبع تبادلا التحية بحميمية وتبادلا الأسئلة المعتادة. بعد ذلك أخذ يونجر يتحدَّث عن الرسم. سأله دون سلفادور عن الفن الألماني، الذي لم يكن يعرفه. تشكّل لديه انطباع أن يونجر كان مهتّمًا فقط بـ«دوريرو»[1]، ولهذا استغرقا بعض الوقت في الحديث عن «دوريـرو» فقط. حماس كليهما كان في تزايد. وفجأة انتبه دون سلفادور إلى أنَّه لم يتبادل كلمة واحدة مع المضيف منذ وصوله. بحث عنه بينما شعور بسيط بالخطر أخذ في التزايد داخله. عندما سألناه أيّ شعورٍ بالخطر كان هذا، أجابنا أنّه خشي أن يكون قد تمّ القبض على الجواتيمالي من جانب الشرطة الفرنسية أو، ما هو أسوأ، من جانب الجستابو. لكنّ الجواتيمالي كان هناك، جالسًا بجانب النافذة، مستغرقًا (برغم أن الكلمة ليست مستغرقًا، الكلمة لا يمكن أن تكون مستغرقًا) في تأمّله الدائم لباريس. مطمئنًا، غيَّر الدبلوماسيُّ الموضوع بلباقةٍ وسأل يونجر عن رأيه في أعمال اللاتيني الصامت. قال يونجر إنه يبدو أنَّ الرسام يعاني من أنيميا حادّة، وبدون شكٍّ، أفضل شيء بالنسبة له أن يأكل. في تلك اللحظة انتبه دون سلفادور أنّه ما زال

---

(1) Albrecht Dürer (1471 - 1528)
أشهر رسّامي عصر النهضة الألمان. في إسبانيا والبلاد الناطقة بالإسبانية يعرف باسم «دوريرو».

يحمل في يديه المؤن التي أحضرها من أجل الجواتيمالي، بعض الشاي، بعض السكر، خبزًا، نصف كيلو من جبن لبن الماعز الذي لا يحبُّه أيُّ تشيلي فقام بأخذه من سفارتنا. كان يونجر ينظر للطعام. احمرّ وجه دون سلفادور خجلًا وأخذ يتركها على الأرفف بينما يقول للجواتيمالي إنَّه «أحضر له بعض الأشياء البسيطة». والجواتيمالي كالعادة لم يشكره ولم يلتفت ليرى عن أيِّ أشياء يتحدّث. يتذكّر دون سلفادور، خلال بضعة ثوان، هو ويونجر واقفان، لا يجدان كلمات، والرسّام اللاتيني لا يبرح مكانه بجانب النافذة، معطيًا ظهره لهما عمدًا. الموقف لا يمكن أن يكون أكثر عبثية. لكن يونجر كان لديه مخرجٌ لأيِّ موقف، وإزاء لا مبالاة مضيفهما، قام بنفسه بواجب الضيافة مع دون سلفادور، جالبًا مقعدَين ودعا الدبلوماسي إلى سجائرَ تركيةٍ، يبدو أنه كان يحتفظ بها من أجل أصدقائه أو لأجل مواقف مثل هذا، إذ إنّه لم يدخِّن سيجارةً واحدة طوال باقي السهرة. ذلك المساء، بعيدين وفي مأمن من الصخب والمقاطعات، غير المناسبة في الغالب، في الصالونات الباريسية، تحدَّث الكاتب التشيلي والكاتب الألماني عن كلِّ ما راق لهما، عمَّا هو دنيوي وما هو إلهي، عن الحرب وعن السلام، عن الرسم الإيطالي وعن الرسم الاسكنديناڤي، عن أصل الشرِّ، وآثار الشرِّ التي يبدو أحيانًا أنَّها متَّصلة عفوًا، عن نباتات وحيوانات تشيلي، التي كان يبدو على علم بها بفضل قراءته لمواطنه «فيليبي»، الذي استطاع أن

يكون ألمانيًّا وتشيليًّا في الوقت نفسه، برفقة فنجانَي شاي قام دون سلفادور بنفسه بإعدادهما (وعندما سُئل الجواتيمالي إن كان يريد واحدًا، رفض بصوت لا يكاد يُسمع)، وتلاهما كوبان من الكونياك صبَّهما يونجر من الزجاجة المحمولة الفضية التي يحملها وهذه المرّة لم يرفض الجواتيمالي، وهو ما أثار ابتسامًا ثم ضحكًا صريحًا متواصلًا لكلا الكاتبين مع التعليقات اللاذعة التي يتطلّبها الموقف. بعد ذلك عندما عاد الجواتيمالي إلى نافذته بنصيبه من الكونياك، أراد يونجر أن يعرف، حيث إنّه كان مهتمًا بتلك اللوحة، إن كان الرسّام قد عاش فترة طويلة في عاصمة الازتيك، إن كان لديه ما يمكن أن يحكي حول إقامته هناك، وهو ما ردّ عليه الجواتيمالي بأنَّه زار مدينة ميكسكو لمدّة أسبوع واحد وأنَّ ذكرياته عن تلك المدينة كانت مشوَّشة وتقريبًا من دون تفاصيل، وبالإضافة إلى هذا، فإنَّ اللوحة التي أثارت اهتمام أو فضول الألماني، قد رسمها في باريس، بعد سنوات عديدة، وتقريبًا من دون أن يفكّر في المكسيك برغم أنَّه كان يشعر بشيء، ولأنَّ الجواتيمالي لم يعثر على تعريف أفضل أطلق عليه «شعور مكسيكي». وهو ما أعطى يونجر فرصة لكي يتحدَّث عن آبار الترسيب في الذاكرة، ملمحًا إلى احتمالية وجود تجربة عاشها الجواتيمالي خلال إقامته القصيرة في مدينة ميكسيكو، ولم يظهر أثرها إلّا بعد مرور سنوات كثيرة، وبرغم أنَّ دون سلفادور كان يوافق على كلِّ ما يقول البطل الألماني، قال لنفسه: هذه المرَّة

ربّما لا علاقة بآبار الترسيب التي تفتح فجأة، أو في كلِّ الأحوال لا يتعلّق الأمر بآبار الترسيب هذه، ولم يكد يفكّر في هذا حتّى بدأ يشعر بطنين في رأسه، وكأنَّ المئاتِ من ذباب الخيل تخرج منها، وهي التي يمكن رؤيتها فقط مع الإحساس بالحر والدوار، برغم أنَّ غرفة الجواتيمالي على السطح ليست بالمكان الذي يمكن أن يُوصف بالدفء، كان الذباب يطير أمام جفنيه، شفّافًا كحبّات عرقٍ لها أجنحة، يصدر الطنين المعروف للذباب، أو الصوت المعروف للذباب، وهو الشيء نفسه، برغم أنَّ باريس خالية من ذباب الخيل، وفي تلك اللحظة، بينما كان دون سلفادور يهزُّ رأسه موافقًا مرّة أخرى، من دون سماع أكثر من عبارات متفرِّقة من الخطاب الذي كان يونجر يقذفه به بالفرنسية، أدرك، أو اعتقدَ أنّه أدرك جزءًا من الحقيقة، وفي هذا الجزء الضئيل من الحقيقة كان الجواتيمالي في باريس وكانت الحرب قد بدأت أو على وشك البدء، والجواتيمالي كان قد اكتسب عادة قضاء ساعات كثيرة ميتة (أو محتضرة) أمام نافذته الوحيدة متأمِّلًا بانوراما باريس، ومن هذا التأمُّل نبعت «طبيعة من مدينة ميكسيكو قبل ساعة من الشروق»، من تأمّل الجواتيمالي لباريس خلال أرقه الليلي، وهكذا كانت اللوحة مذبحًا للتضحيات البشرية، وهكذا كانت اللوحة دلالة على نفاد الصبر، وهكذا كانت اللوحة قبولًا لهزيمة، ليست هزيمة باريس ولا هزيمة الثقافة الأوربية التي كانت مستعدّة بشجاعة لتدمير نفسها ولا الهزيمة السياسية لبعض

القيم التي كان الرسام يؤمن بها من دون فَهم، لكنّها كانت هزيمته هو شخصيًّا، رجل جواتيمالي بلا شهرة ولا مال لكنَّه كان مستعدًّا لحفر اسم في أوساط مدينة النور، والبصيرة التي كان الجواتيمالي يقبل بها هزيمته، بصيرة تنسحب على أمور أخرى تتجاوز ما هو شخصي وحميمي، جعلت رجلنا الديبلوماسي يقشعرّ أو كما يقول العامّة ينتصب شعر ذراعيه كريش الدجاجة، وحينئذٍ شرب دون سلفادور رشفة ممّا تبقّى له من الكونياك واستأنف سماع كلمات الألماني الذي ظلّ يتحدّث بمفرده كلّ هذا الوقت، لأنّه، كاتبنا، كان قد وقع في شرك خيوط عنكبوت من الأفكار التي لا طائل منها، والجواتيمالي، كما كان متوقّعًا، كان مستلقيًا بجانب نافذته يحرق دمه في التأمّل المتكرّر العقيم لباريس. وهكذا بعد أن أمسك، ليس بصعوبة كبيرة (أو هكذا كان يعتقد) بخيط «الخطبة»، استطاع دون سلفادور أن يشارك في الإسهاب النظري ليونجر، إسهاب كان بإمكانه أن يثير الفزع حتَّى لبابلو نفسه، إن لم يكن مخفّفًا بسبب التواضع وعدم استخدام الألماني لعبارات فخيمة في التعبير عن معارفه في الفنون الجميلة. وبعد ذلك غادرا معًا، ضابط الجيش الألماني والديبلوماسي التشيلي، غرفة سطح الرسّام الجواتيمالي وبينما كانا يهبطان السلالم العالية التي لا نهاية لها، حتَّى الوصول إلى الشارع، قال يونجر إنّه لا يعتقد أنّ الجواتيمالي سيظلّ حيًّا حتَّى الشتاء التالي، كلام يبدو غريبًا لخروجه من شفتيه، لأنّه لم يكن يخفى على أحد أنّ آلافًا كثيرة

من الأشخاص لن تظلّ على قيد الحياة حتَّى الشتاء التالي، معظمهم بصحّة أفضل من الجواتيمالي، معظمهم أكثر بهجة، معظمهم لديهم رغبة في الحياة أكثر بكثير من الجواتيمالي، لكن على أيّة حال قال يونجر هذا، ربّما من دون تفكير، أو محافظًا بصرامة على خصوصية كلّ حالة، وأحنى دون سلفادور رأسه مرّة أخرى موافقًا، برغم أنّه، لكثرة زياراته للرسّام، لم يكن متيقّنا من أنّه سيموت، لكن برغم هذا قال نعم، من دون شكّ، بالطبع، وربّما يكون فقط قد سعل «أهه أهه»، الخاصّة بالدبلوماسيين ويمكن أن تعني أيّ شيء أو عكسه. وبعد فترة قصيرة ذهب يونجر إلى العشاء في بيت سلفادور رييس وهذه المرّة تمّ صبُّ الكونياك في كئوس كونياك وتحدّثا عن الأدب بينما كانا جالسين على مقعدين مريحين وكان العشاء، بشكل ما، متوازنًا، كما يجب أن يكون العشاء في باريس، سواء لجهة الطعام والشراب أو الثقافة، ولدى مغادرة الألماني أهداه أحد كتبه المترجمة إلى الفرنسية، ربّما الوحيد، لا أعرف، كما يقول الشابُّ الهَرِم لا أحد في باريس يحتفظ بأيّ ذكرى عن دون سلفادور رييس، لا بدَّ أنّه يقول هذا لكي يضايقني، ربّما لا يتذكّر أحد في باريس سلفادور رييس، وفي شيلي يتذكّره القليلون بالفعل، وأقلّ منهم من يقرؤه، لكنّ هذا لا يهمّ الآن، المهمّ الآن أنّه لدى مغادرته مسكن سلفادور رييس كان الألماني يحمل في جيب سترته أحد مؤلّفات كاتبنا، وأنّه قرأه بعدَ ذلك من دون شكٍّ، لأنّه تحدّث عنه في

مذكّراته، ولم يكن كلامًا سيّئًا. وهذا كلُّ ما حكاه لنا سلفادور رييس عن سنواته في باريس خلال الحرب العالمية الثانية. ويوجد شيء معيّن يجب أن يُشعرنا بالفخر: لا يتحدّث يونجر في مذكّراته عن أيّ تشيلي، باستثناء سلفادور رييس. لا يوجد أيّ مواطن تشيلي يظهر طرف أنفه المرتعش في كتابات ذلك الألماني باستثناء سلفادور رييس. لا يوجد أيُّ تشيلي، كفرد أو كمؤلّف كتبٍ، ظهر في حياة يونجر في تلك السنوات الثرية والغامضة، باستثناء سلفادور رييس. وفي تلك الليلة، أثناء ابتعادي عن بيت قَصّاصنا الدبلوماسي ماشيًا في شارع على جانبيه أشجار الزيزفون، في صحبة الظلّ المرتعش لفارويل، جاءتني رؤية حيث كانت الأفكار تنهمر كالسيول، لامعة مثل حلم الأبطال، ولأنّني كنت شابًّا مندفعًا أخبرت فارويل في الحال، بينما لم يكن هو يفكّر إلّا في الوصول بسرعة إلى مطعم نُصِحَ بمطبخه، وقلت لفارويل إنّني رأيت نفسي خلال لحظة، هناك، بينما كنّا نسير في ذلك الشارع الهادئ المحاط بأشجار الزيزفون، أكتب قصيدة تتغنّى بحضور أو ظلّ ذهبي لكاتب نائم داخل سفينة فضاء، مثل طائر صغير داخل عشٍّ حديدي غريب الشكل يطلق أدخنة، وأنّ هذا الكاتب الذي كان يقوم برحلة إلى الخلود هو يونجر، وأنّ السفينة انفجرت في جبال الأنديز، وأنّ جسد البطل لم يُمَسّ وسيقوم الجليد الدائم بالحفاظ عليه داخل الحديد، وأنّ كتابات الأبطال، وبالتالي كتّاب كتابات الأبطال، كانوا أنشودة في حدّ

ذاتهم، أنشودة شكر للربّ وللحضارة. وفارويل الذي يسرع خطاه على قدر استطاعته، لأنّ جوعه كان متزايدًا، نظر إليّ من فوق كتفه كما ينظر إلى ساذج معجب بذاته ورماني بنظرة ساخرة. وقال لي إنّه من المحتمل أن تكون كلمات سلفادور رييس قد أثّرت فيّ. أمر سيّء. الإعجاب جيّد. التأثّر سيء. هذا ما قاله فارويل من دون التوقّف في أيّ لحظة. بعد ذلك قال لي إنّه توجد أعمال أدبية كثيرة حول موضوع الأبطال. كثيرة لدرجة أنّ شخصين ذوي ذائقة وأفكار متناقضين تمامًا يمكنهما الاختيار بأعين مغلقة من دون إمكانية إطلاقًا للإمساك بالكتاب نفسه. وبعد ذلك سكت وكأنَّ الجهد المبذول في السير يوشك أن يقتله، بعد فترة قال: اللعنة، أنا جوعان. بأسلوب لم أسمعه منه من قبل قطّ ولن أسمعه مرّة أخرى بعد ذلك على الإطلاق، ولم أقل شيئًا حتَّى جلسنا إلى مائدة في مطعم يميل إلى الحقارة، وهناك، بينما كان يقوم بابتلاع أطعمة تشيلية متعدّدة، حكى لي قصة «تلّ الأبطال» أو هولدنبرج، تلّ يوجد في مكان ما في وسط أوربَّا، ربّما في النمسا أو المجر. لسذاجتي فكّرت أنّ القصّة التي سيقوم فارويل بحكايتها لي مرتبطة بيونجر أو بما قلته له من قبل، مدفوعًا بالحماس حول يونجر وحول سفينة الفضاء المحطّمة في الجبال، وحول رحلة الأبطال نحو الخلود، الذين يسافرون بلا متاع سوى كتاباتهم. لكنّ القصّة التي حكاها لي فارويل كانت عن إسكافي، إسكافي من رعايا إمبراطور النمسا والمجر، تاجر

أحرز ثروته باستيراد أحذية من مكان ما ليبيعها في مكان آخر، وبعد ذلك كان يصنع الأحذية في فيينا لكي يبيعها لنبلاء فيينا وبودابست وبراغ، وأيضًا لنبلاء ميونخ وزيورخ ونبلاء صوفيا وبلجراد وزغرب وبوخارست. رجل أعمال بدأ بالقليل، ربّما شركة عائلية متعثّرة قام هو بالنهوض بها وتنميتها وجلب لها الشهرة، فقد كانت أحذية هذا الصانع محلّ تقدير كلّ مَن يستخدمها بسبب ذوقها الرفيع وراحتها المطلقة، فقد كان الأمر أساسًا يتعلّق بهذا، الجمع بين الجمال والراحة، أحذية عادية، وأيضًا أحذية طويلة الرقبة وأحذية قصيرة الرقبة وأحذية للمطر وحتّى صنادل وخفاف، سهلة الاستخدام وتدوم كثيرًا. بكلمات قليلة، يمكن للمرء أن يثق بأنّ هذه الأحذية لن تتركه ملقًى وسط الطريق، وهو ما يشعر المرء بالامتنان له، يمكنه أن يثق بأنّ تلك الأحذية لن تسبّب له تورّمات أو لن تتسبّب في أن تسوء حالة التورّمات الموجودة من قبل، وهو ما لا يقلّل محبّي الباديكير من أهمّيته، أحذية، في كلّ الأحوال، كان اسمُها وعلامتها ضمانًا للتميّز والراحة. والإسكافي المشار إليه، إسكافي فيينا، كان من زبائنه إمبراطور النمسا والمجر ذاته، وكان مدعوًّا، أو كان يعمل لكي يُدعى، وكان ينجح في هذا، إلى بعض حفلات الاستقبال التي كان يذهب إليها أحيانًا الإمبراطور ووزراءه ومارشالات أو جنرالات الإمبراطورية، الذين كانوا يذهبون، العديد منهم، مرتدين أحذية ركوب الخيل أو أحذية الشارع التي يصنعها

الإسكافي، ولم يكونوا يبخلون عليه بلحظات على انفراد حيث يتمّ تبادل عبارات لا أهمية لها لكن مهذّبة دائمًا، بتحفّظ، ووقار لكنًّها مصبوغة باكتئاب قصور الخريف الخفيف، الذي لا يكاد يُلحظ، الذي كان اكتئاب النمساويين ـ المجريّين، كما قال فارويل، بينما كان الاكتئاب الروسي، على سبيل المثال، مرتبطًا بقصور الشتاء، أو اكتئاب الأسبان، المرتبط بقصور الصيف والحرائق، وفي هذه الجزئية أعتقد أنَّ فارويل كان مبالغًا. والإسكافي متشجّعًا، حسب بعضهم، بهذا الاكتراث ومدفوعًا، حسب آخرين، بسبب اضطرابات مختلفة تمامًا، بدأ يداعب فكرة وتركها تختمر وتعهّدها بالرعاية وعندما اكتملت، لم يتردّد في عرضها على الإمبراطور شخصيًّا، برغم أنّه من أجل هذا اضطرّ أن يغامر بكلٍّ صداقاته في الدوائر الإمبراطورية وفي الدوائر العسكرية وفي الدوائر السياسية. وعندما كان قد ألقى بكلّ أوراقه بدأت الأبواب تفتح، وعبر الإسكافي بوّابات وصالات انتظار ودخل صالونات تتزايد فخامتها وعتمتها، برغم أنّها عتمة مصقولة، عتمة ملكية، حيث لا صوت للخطوات، أولًا لجودة وسِمْك الأبسطة، وثانيًا لجودة ومرونة الأحذية، وفي الغرفة الأخيرة التي دخل إليها كان الإمبراطور جالسا على كرسي من أكثرها شيوعا، بجانب بعض مستشاريه، وبرغم أنّهم فحصوه بحواجب منعقدة عبوسة مدقّقة، بل حائرة، كأنّهم يسألون أنفسهم عمّا يبحث وما جاء به إلى هنا، أي حشرة استوائية لدغته، أيّ

رغبة مجنونة تملّكت روح الإسكافي ليطلب ويحصل على لقاء مع سيّد كلّ النمساويين ـ المجريين. الإمبراطور، على العكس استقبله بكلمات مليئة بالعطف، مثل أب يستقبل ابنه، متذكرا أحذية بيت (ليفبفري) من ليون، جيدة لكنها أدنى من أحذية صديقه المحبوب، وأحذية بيت (دونكان ـ سيجال) من لندن، ممتازة لكنها أدنى من أحذية تابعه الوفي، وأحذية بيت (نيدرلي) من بلدة ألمانية صغيرة لا يتذكّر الإمبراطور اسمها (فيرته، ساعده الإسكافي) مريحة للغاية لكنّها أقلّ من أحذية مواطنه المبتكر، وبعد ذلك تكلّموا عن الصيد وأحذية الصيد وأحذية ركوب الخيل والأنواع المختلفة من الجلود وعن أحذية السيِّدات، برغم أنّهم عندما وصلوا لتلك النقطة، اختار الإمبراطور أن يكبح نفسه قائلًا بسرعة، يا سادة، بعض التحشُّم، كأنّ مستشاريه هم مَن فتحوا الموضوع وسط الكلام وليس هو، ذنب صغير تقبّله المستشارون والإسكافي بمرح، ملقين اللوم على أنفسهم بلا مواربة، حتَّى وصلوا إلى الغرض من المقابلة، وبينما كان الجميع يصبّون فنجانًا آخر من الشاي أو القهوة أو يملؤون كئوس الكونياك من جديد، جاء دور الإسكافي للكلام وهذا، ملا رئتيه بالهواء، بالتأثر الذي تفرضه عليه اللحظة وحرَّك يديه كأنّه يداعب تويج زهرة غير مرئية لكن متخيّلة، أو يمكن تخيّلها، وشرح لمليكه ما هي فكرته. الفكرة كانت هولدنبرج، أو «تلّ الأبطال». تلّ موجودٌ في وادٍ يعرفه، بين هذه القرية وتلك، تلٌّ صخورُه

كلسية، بها بلوطٌ وأرز (صنوبر) على السفح وأعشاب من كلّ نوع في المناطق العالية شديدة الانحدار، لونُه أخضر وأسود، برغم أنّه يمكن التمتّع في الربيع بألوان جديرة بباليت ألوان أكثر الرسّامين إنتاجًا، تلٌّ ممتع للنظر لو تمَّ تأمُّله من الوادي، ويبعث على التفكير لو تمَّ تأمّله من المناطق العالية المحيطة بالوادي، تلٌّ يبدو قطعة من عالم آخر، موجود هناك كملجأ للبشر، من أجل صفاء القلوب، لعزاء الروح، لبهجة الحواسّ. التلّ، يا لَلأسف، له صاحب، الكونت H، من كبار الملّاك في الإقليم، لكنّ الإسكافي قام بحلٍّ هذه المشكلة مُتحدِّثًا مع الكونت، الذي كان رافضًا في البداية فكرةَ بيع جزء غير منتج من أملاكه، لمجرّد العناد كمالك، حسب ما قال الإسكافي مبتسمًا بتهذُّب، كأنَّه يتفهّم الكونت المسكين، لكن في النهاية وبعد أن عرض عليه مبلغًا محترمًا، كان مستعدًّا للبيع. إذن، فكرة الإسكافي كانت، أن يقوم بشراء التلِّ وتحويله إلى نصب تذكاري لأبطال الإمبراطورية. ليس لأبطال الماضي وأبطال الحاضر فقط، بل لأبطال المستقبل أيضا. أي أنَّ التلَّ يجب أن يقوم بوظيفة المقبرة والمتحف. كيف كمتحف؟ بإقامة تمثال، بالحجم الطبيعي، لكلّ بطلٍ عاش على أرض الإمبراطورية، وأيضًا، لكن فقط في حالات شديدة الخصوصية، لبعض الأبطال الأجانب. وكيف كمقبرة؟ حسنًا، هذا أمر سهل الشرح: بدفن أبطال الوطن هناك، وهو قرارٌ يقع على عاتق لجنة من العسكريّين والمؤرِّخين ورجال القانون،

والكلمة الأخيرة ستكون دائمًا للإمبراطور، وبهذه الطريقة سيرتاح أبطال الماضي في التلِّ للأبد، هؤلاء الذين لا يمكن بشكل عملي العثورُ على هياكلهم العظمية، أو بمعنى أدقَّ على رفاتهم، ستُقام لهم تماثيل، تلتزم بما يقرِّره المؤرِّخون أو الأساطير أو الحكايات الشفهية أو الروايات عن صفاتهم الجسدية، والأبطال الجدد أو المستقبليّون، الذين ستكون أجسادهم، يمكن أن نقول هذا، بمتناول يد موظَّفي الإمبراطورية.

ماذا يطلب الإسكافي من الإمبراطور إذن؟ أوّلًا وقبل أيِّ شيء، الإذن ومباركته، وأن يكون المشروع جديرًا برضاه. ثانيًا، الدعم المالي من الدولة، فهو بمفرده لا يمكنه تحمُّل كلِّ النفقات التي يتطلَّبها عملٌ فرعوني كهذا. بمعنى، أنَّ الإسكافي كان مستعدًّا لدفع ثمن تلّ الأبطال من جيبه، وتجهيزه كمقبرة، السور الذي يحيط به، الطرق التي ستجعل بإمكان الزوّار الوصول إلى كلّ ركن، بالإضافة إلى بعض التماثيل لبعض أبطال الماضي تقديرًا من الإسكافي لتاريخهم الوطني، فضلًا عن ثلاثة حرّاس غابات، والذين يمكنهم العمل كحُرَّاس مقابر وبُستانيّين، حيث إنَّهم يعملون في إحدى ممتلكاته الريفية، رجالٌ غيرُ متزوّجين، أقوياء، يمكن الاعتماد عليهم سواء في حفر مقبرة أو في مطاردة لصوص المقابر الليليّين. الباقي، أي التعاقد مع النحَّاتين، شراء الأحجار، الرخام أو البرونز، الأمور الإدارية، التصاريح والدعاية، نقل التماثيل، الطريق الذي يربط تلّ الأبطال بالطريق الرئيسي لفيينا،

الأحـداث التي يجب الاحتفال بها هناك، نقل الجثامين والمرافقين، بناء كنيسة صغيرة (أو ليست صغيرة للغاية)... إلـخ... إلخ، كلّ هذا ستتحمّله الدولة. وبعد ذلك أسهب الإسكافي في الفوائد الأخلاقية لنصب تذكاري مثل هذا وتحدّث عن القيم القديمة، عمّا سيبقى عندما يختفي كلّ شيء، عن ضعف البشر وارتعشات اللحظات الأخيرة. وعندما انتهى من الكلام، قام الإمبراطور الذي كانت عيناه مبلّلتين بالدموع بالإمساك بيديه واقترب بشفتيه من أذن الإسكافي وهمس له بكلمات متقطعة لكن بحزم، لم يسمعها أحدٌ وبعد ذلك نظر في عينيه، نظرة كان من الصعب تحمّلها، لكن الإسكافي الذي كانت عيناه مبلّلتين أيضًا، تحمّلها من دون أن يرتجف جفنه، وبعد ذلك هزّ الإمبراطور رأسَه عدّة مرات بتأكيدات متعاقبة، وبينما كان ينظر إلى مستشاريه قال برافو، ممتاز، مثالي، فردّد الآخرون برافو، برافو. وهكذا كان كلّ شيء قد قيل وخرج الإسكافي من القصر وهو يفرك كفّيه، مشعًّا بالسعادة. بعد أيّام قليلة تغيّر مالك تلّ الأبطال والإسكافي المتهوّر، من دون انتظار أيِّ بادرة، أطلق إشارة البداية لتحرُّك فرقة من العمال لكي تنجز الأعمال الأولى، أعمالًا كان يشرف عليها بنفسه، بعد أن انتقل إلى العيش في فندق صغير في أقرب قرية أو بلدة من دون التفكير في المنغصّات، ومكرِّسًا نفسه لعمله بدرجة لا يصل لها سوى فنان، ضدَّ الريح والأمواج، من دون أن يهتمَّ بالمطر الذي كثيرًا ما كان يَغْرِق الحقول في ذلك الإقليم،

ولا العواصف التي كانت تمرّ في السماء الرمادية للنمسا أو للمجر في مسيرتها المستمرة إلى الغرب، عواصف كانت تبدو كالبراكين، منجذبة إلى ظلال جبال الألب الضخمة، وكان الإسكافي يراها مرتديًا معطفًا يقطر ماءً وبنطلونًا يقطر ماءً وحذاءً مدفونًا في الطين لكن لا ينفذ منه الماء إطلاقًا حذاءً رائعٌ بالطبع، مدحه مستحيل، أو فقط كان في متناول فنان حقيقي. حذاء يصلح للرقص أو للجري أو للعمل في الوحل، حذاءً لن يترك صاحبه في موقف سيِّء أو كأضحوكة، وكان الإسكافي لا يكاد يعيره اهتمامه (كان مساعده أو موظّف الفندق الشابّ يقوم بتلميعه بعد أن يزيل الطين عنه في الليل، بينما يرقد الإسكافي منهكًا، ملتفًّا في الملاءات وأحيانًا من دون أن يخلع كلّ ملابسه) مستسلمًا لحلمه الجنوني، يتجاوز كوابيسه ليصل في نهايتها إلى حيث ينتظره دائمًا تلُّ الأبطال، مهيبٌ، هادئٌ، معتمٌ، نبيلٌ، المشروع أو العمل الذي لا نعرف منه سوى شذرات، العمل الذي نظنُّ غالبًا أنّنا نعرفه لكنّنا في الحقيقة لا نعرف عنه سوى القليل، الغموض الذي نحمله في القلب وفي لحظة جنون نضعه في وسط صينية من المعدن، منقوش عليها حروف ميسينية، حروف تغمغم بحكايتنا وأشواقنا، وفي الحقيقة لا تغمغم إلّا بهزيمتنا، المستحقّة، تلك التي سقطنا فيها من دون أن ندري، ونحن قمنا بوضع القلب وسط تلك الصينية الباردة، القلب، القلب، وكان الإسكافي يرتعد في فراشه ويتحدّث مع نفسه ويقول كلمة

(قلب)، وأيضًا كلمة (بهاء) ويبدو أنّه يختنق ويدخل مساعده غرفة ذلك الفندق البارد ويقول له كلمات مطمئنة، استيقظ، سيّدي، ليس إلّا حُلمًا، سيّدي، وعندما يفتح الإسكافي عينيه، اللتين كانتا تتأمّلان منذ ثوانٍ قلبَه الذي لا يزال ينبض وسط الصينية، كان المساعد يقدِّم له كوب حليب ساخن ولم تكن الإجابة سوى صفعة ضعيفة، كأنَّ الإسكافي في الحقيقة يريد إبعاد كوابيسه، وبعد ذلك، ينظر له كأنَّه لا يكاد يتعرّف عليه، كان يقول له إن يدع الترهات جانبًا، وأن يأتي له بكأس كونياك أو بعض الخمرة. وهكذا، يومًا بعد يوم، وليلةً وراء ليلة، بطقس جيّد أو سيِّء، كان ينفق ماله بيديه، إذ إنّ الإمبراطور، بعد أن بكى وقال برافو، ممتاز، لم يقل شيئًا آخر، وأيضًا قرّر الوزراء الصمت، والمستشارون والجنرالات والضباط المتحمّسون، وبدون مستثمرين لا يمكن للمشروع أن يستمرَّ، لكنّ الواقع أنّ الإسكافي قد بدأه ولا يمكنه أن يتوقّف. ولم يعد يظهر في فيينا إلّا لمواصلة مساعيه الفاشلة، فقد كان يقضي كلَّ الوقت في تلِّ الأبطال، مشرفًا على جهود عمّاله الذين كانوا يتناقصون من فوق صهوة حصان متوسّط الحجم قادر على تحمُّل قسوة الطقس، صلب وعنيد مثله، أو مشتغلًا بنفسه لو اقتضى الحال. في البداية، في القصر الإمبراطوري وفي صالونات فيينا الأنيقة، كان اسمُه وفكرته يسريان مثل خيط رفيع من البارود قام إله ساخر بإشعاله لتسلية الجمهور، لكن بعد ذلك سقط في النسيان مثلما يحدث

مع كلّ شيء. ذات يوم لم يعد أحدٌ يتحدَّث عنه. يوم آخر، نسي الناس وجهه. تجارته في الأحذية ربّما تكون قد تحمّلت مرور السنين بشكل أفضل. أحيانًا، يراه شخصٌ، معرفة قديمة، في أحد شوارع فيينا، لكنَّ الإسكافي لم يعد يُحيِّي أحدًا أو يردّ تحية أحد، ولم يعد يدهش أيّ شخص أن ينتقل إلى الرصيف الآخر. جاءت أوقات صعبة وأوقات مضطربة، وفوق كلِّ شيء جاءت أوقات رهيبة، اجتمعت فيها الصعوبة والاضطراب والقسوة. الكُتّاب ظلُّوا يطاردون ملهماتهم. مات الإمبراطور. وقعت حربٌ وماتت الإمبراطورية. ظلَّ الموسيقيّون يؤلّفون نغماتهم والناس تذهب لحفلات الموسيقى. لم يعد أحدٌ يتذكّر الإسكافي، باستثناء ذِكرُ عابر مصادفة من القليلين الذين يمتلكون أحذيته الرائعة القوية. لكنّ تجارة الأحذية أيضًا تأثّرت بالأزمة العالمية وتغيّر مالكها ثم اختفت. الأعوام التالية كانت أكثر قسوة واضطرابًا. وقعت اغتيالات ومطاردات. ثم جاءت حرب أخرى، أكثر الحروب بشاعة. وذات يوم، ظهرت الدبابات السوفيتية في الوادي. والكولونيل، قائد فرقة الدبابات رأى تلّ الأبطال عبر نظّارته المكبّرة من كوّة مدرّعته. وصرَّت جنازير الدبابات بينما تقترب من التلّ الذي كان لامعًا مثل معدن داكن تحت أشعّة الشمس الأخيرة المتناثرة في الوادي. وهبط الكولونيل الروسي من دباباته وقال ما هذا بحقِّ الجحيم؟ كان بقيّة الروس الموجودين في الدبّابات الأخرى قد هبطوا أيضًا وفردوا سيقانهم وأشعلوا

سجائر ونظروا إلى السور الحديدي المشغول الذي يحيط بالتلّ والبوّابة الضخمة والحروف البرونزية المنصهرة المغروسة على صخرة أمام المدخل لتخبر الزائر أنَّ هذا المكان هو هولدنبرج. وعندما سُئل فلّاح، كان قد عمل هناك في طفولته، قال إنّ هذه مقبرة، المقبرة التي سيُدفَن فيها كلُّ أبطال العالم. ثم عبر الكولونيل ورجاله البوّابة، ولهذا كان عليهم أن يكسروا ثلاثة أقفال قديمة صدئة، وأخذوا يمشون في ممرّات تلّ الأبطال. ولم يروا تماثيل أبطال أو مقابر وإنّما فراغ ووحشة فقط، حتَّى اكتشفوا في أعلى نقطة في التلّ مقبرة تشبه الخزانة، بوّابتها مغلقة فعملوا على فتحها. في داخل المقبرة، فوق قطعة من الحجر وجدوا جثّة الإسكافي جالسًا، مقلتاه خاويتان كأنّهما لن تتأمّلا شيئًا آخر سوى الوادي الذي ينهض عليه التلُّ، فكّاه مفتوحان كأنَّه بعد أن استشرف الخلود كان ما يزال يضحك، قال فارويل. ثم أضاف: هل فهمت؟ هل فهمت؟ سمعت صوت أبي مرّة أخرى، متجسِّدًا في ظلِّ ابن عرس أو نمس متسحِّبًا في أركان البيت، التي كانت مثل أركان طموحي. وبعد ذلك كرّر فارويل: أتفهم؟ أتفهم؟ كنّا ننتظر القهوة، والناس في الشارع، متعجّلة، مدفوعة برغبة غير مفهومة في الوصول إلى بيوتها، وظلالهم كانت تظهر واحدًا وراء الآخر، بإيقاع متسارع على حوائط المطعم حيث كنّا فارويل وأنا في مأمن من الريح والعواصف، برغم أنّني ربّما يجب أن أقول كنا في مأمن من الماكينة الكهرومغناطيسية التي انطلقت في

شوارع سانتياجو وفي الروح الجمعية لسكان سانتياجو، سكون تقطعه بالكاد حركاتُ أيدينا التي تقترب بفناجين القهوة من شفاهنا، بينما أعيننا تراقب، كأنّنا غير مهتمّين، أو متصنّعين الشرود، على الطريقة التشيلية، صور خيال الظلّ التي تظهر وتختفي كأشعّة سوداء على جدران المطعم، تسلية كان يبدو أنّها تخلب لبَّ أستاذي وتسبّب لي دوارًا وألمًا في العينين، ألمًا كان يمتدُّ بعد ذلك إلى الصدغين وإلى جدارَي الجمجمة ثم كلّ الجمجمة، وكنت أحاول التخفيف منه بالصلاة والأدعية، برغم أنّه في تلك المرّة، أتذكّر هذا الآن متكأً على مِرفقي بجهد كبير كأنّني أريد أن أقوم في الحال بتحليق ملائكي، تركّز الألم في العينين، وهو ما يسهل علاجه، فبإغلاقهما ينتهي الأمر، وهو ما كان يمكنني وكان يجب أن أقوم به، لكنّني لم أفعل، لأنَّ التعبير على وجه فارويل، سكون فارويل لم يكن يكسره في تلك اللحظة إلّا حركة خفيفة من العينين، بالنسبة لي كانت بها ملمح من رعب لا نهائي، أو رعب منطلق إلى ما لا نهاية، وعلى أيّة حال، هذا هو مصير الرعب، الصعود، والصعود، إلى ما لا نهاية، ومن هنا حتفنا، من هنا فجيعتنا، من هنا بعض التفسيرات لعمل دانتي، ذلك الرعب الرفيع الضعيف، مثل دودة، وبرغم هذا يمكنه الصعود والصعود والانتشار مثل معادلة لأينشتين، والتعبير على وجه فارويل، كما كنت أقول، كان يكتسب هذا البعد، مع هذا لو مرّ شخص بمائدتنا ونظر إليه فلن يرى سوى رجل محترم مُحبٍّ

للتأمّل. وفي تلك اللحظة فتح فارويل فمه، وبينما كنتُ أفكّر أنّه سيسألني مرّة أخرى إن كنت أفهم، قال: بابلو سوف يفوز بنوبل. وقال هذا كأنّه ينتحب في حقل محروق. وقال: أمريكا اللاتينية سوف تتغير. وتشيلي ستتغير. وبعد ذلك تدلّى فكّه وبرغم هذا قال مؤكِّدًا: لن أشهد هذا. فقلت له: فارويل، ستشهده، ستشهد كلَّ شيء. وفي تلك اللحظة أدركت أنّني لم أكن أتحدَّث عن الفردوس ولا عن الحياة الأبدية وإنّما كنت أقول نبوءتي الأولى، وإن كان الأمر الذي يتوقّعه فارويل سيحدث، فهو سوف يكون حاضرًا. وقال فارويل: حكاية الرجل النمساوي تركتني حزينًا يا أوروتيا. وقلتُ: أنت ستعيش سنوات كثيرة يا فارويل. وفارويل: بماذا تفيد الحياة، فيمَ تفيد الكتب؟ ليست إلّا ظلالًا. وأنا: مثل تلك الظلال التي كنت تنظر لها؟ وفارويل: تمامًا. وأنا: أفلاطون لديه كتابٌ شديدُ الأهمية حول هذا الموضوع. وفارويل: لا تكن غبيًّا. وأنا: ماذا تقول لك تلك الظلال، يا فارويل، اِحكِ لي؟ وفارويل: تكلّمني عن تعدّد القراءات. وأنا: عديدة لكنّها بائسة حقًّا، متواضعة حقًّا. وفارويل: لا أعرف عمّا تتحدّث. وأنا: عن العميان يا فارويل، عن حركات العميان العبثية، عن تخبّطاتهم، عن تعثّراتهم ووقوعهم، عن اصطدامهم وسقوطهم، عن انكسارهم التامّ. وفارويل: لا أعرف عمّا تحدّثني، ماذا بك؟ لم أرك هكذا من قبل. وأنا: يسعدني أن تقول لي هذا. وفارويل: لم أعد أعرف ما أقول، أريد أن أتحدَّث، أن أقول، لكن لا يخرج إلّا

غثاء. وأنا: هل ترى شيئًا حقيقيًّا في خيال الظلّ؟ هل ترى مشاهد واضحة، دوّامة التاريخ، مخروط مجنون؟ وفارويل: أميّز لوحة ريفية. وأنا: ما يشبه مجموعة من الفلّاحين يُصَلّون، ويذهبون ويرجعون ويُصَلّون ويذهبون؟ وفارويل. ألمح عاهرات يتوقّفن خلال جزء من الثانية لتأمّل شيء مهمّ وبعد ذلك يذهبن مثل النيازك. وأنا: هل تميّز شيئًا يخصّ تشيلي؟ هل ترى طريق الوطن؟ وفارويل: هذا الطعام يشعرني بالتعب. وأنا: هل تميّز في خيال الظلّ مختارتنا الشعرية؟ هل يمكن قراءة أيِّ اسم؟ هل يمكن التعرُّف على أيّ وجه؟ وفارويل: أرى وجه نيرودا ووجهي لكن في الحقيقة أنا أخدع نفسي، ليس إلّا شجرة، أرى شجرة، الظلّ المتضاعف المخيف للأغصان، مثل بحر تجفّ مياهه، رسم يوحي بوجهين وهو في الحقيقة ليس إلَّا مقبرة في الهواء الطلق، شقّها سيف ملاك أو مطرقة عملاق. وأنا: وماذا أيضًا؟ وفارويل: عاهرات يجئن ويذهبن، نهر من الدموع. وأنا: فلتكن أكثر تحديدًا. وفارويل: هذا الطعام يشعرني بالإعياء. وأنا: يا لَلعجب، لا يوحي لي خيال الظلّ بأيّ شيء، فقط أرى ظلالًا، ظلالًا كهربائية، كأنّ الزمن يجري بسرعة. وفارويل: لا يوجد عزاء في الكتب. وأنا: أرى المستقبل بوضوح، وأنت موجود في ذلك المستقبل، متمتِّعًا بحياة طويلة، محبوبًا ومحترمًا من الجميع. وفارويل: مثل الدكتور جونسون؟ وأنا: تمامًا، لقد أصبت الهدف، لا أكثر ولا أقلّ. وفارويل: مثل الدكتور جونسون

ابن تلك القطعة من الأرض التي تخلّى عنها الربّ؟ وأنا: الربّ موجود في كلِّ مكان، حتَّى في أكثر الأماكن ابتعادًا. وفارويل: إن لم أكن أشعر بتعب في المعدة، وثملًا للغاية لقمت بالاعتراف فورًا. وأنا: هذا يشرّفني. وفارويل: أو سأقوم بسحبك إلى الحمام لمعاشرتك في الحال. وأنا: لست أنت مَن يتحدّث، إنّه النبيذ، إنّها تلك الظلال التي تقلقك. وفارويل: لا تخجل، كلّ التشيليين لواطيّون. وأنا: كلّ الرجال لواطيون، كلّهم يحملون لواطيًا في أعماق الروح، وليس فقط أبناء وطننا المساكين، وأحد واجباتنا أن نتفوق عليه، أن ننتصر عليه، أن نجعله يركع على قدميه. وفارويل: أنت تتحدّث مثل أحد آكلي القضبان. وأنا: لم أفعل هذا من قبل. وفارويل: نحن هنا في أمان، نحن هنا في أمان، ولا حتَّى في مدرسة اللاهوت؟ وأنا: كنت أدرس وأُصَلّي، أُصَلّي وأدرس. وفارويل: نحن هنا في أمان، في أمان، في أمان. وأنا: كنت أقرأ سان أجوستين، كنت أقرأ سان توماس، كنت أدرس حيوات كلّ البابوات. وفارويل: وما زلت تتذكّر تلك الحيوات المقدَّسة؟ وأنا: محفورة بالنار. وفارويل: من كان بيو الثاني؟ وأنا: بيو الثاني، كان اسمه اينياس سيلفيو بيكولوميني، ولد في ضواحي سيينا، كان على رأس الكنيسة منذ 1458 حتَّى 1464، كان في مجمع بازل، سكرتيرًا للكاردينال كابريانكا، بعد ذلك خدم مع البابا غير المعترف به فيلكس الخامس، بعد ذلك صار في خدمة الإمبراطور فيذريكو الثالث، بعد ذلك تمّ تدشينه شاعرا،

أي أنّه كان يكتب شعرًا، محاضراً في جامعة فيينا حول الشعراء القدامى. في العام 1444 نشر روايته «حكاية عاشقين» (أوريالوس ولوكريثيا)، المتأثرة بـ«بوكاشيو»[1]، في العام 1445، بعد عام واحد من نشر العمل المذكور، تلقى التكليفات الكهنوتية وتغيّرت حياته، قام بالتكفير عن ذنوبه، واعترف بأخطائه السابقة، في العام 1449 أصبح أسقف سيينا، وفي العام 1456 كاردينالاً، ولم يكن يفكّر إلّا في القيام بحملة صليبية جديدة[2]، في العام 1458 أطلق من دون نجاح دعوته التي كان يدعو فيها الملوك، غير مكترثين، إلى مدينة مانوتا، بعد ذلك تمَّ التوصّل لاتفاق وتقرّر القيام بحملة صليبية مدّتُها ثلاثة أعوام، لكنَّ الجميع تجاهل كلمات البابا حتَّى نصّب نفسه قائدًا وأعلن ذلك، تحالفت فينيسيا مع المجر، سكاندربرج هاجم الأتراك، ستيفان العظيم حاز لقب «بطل مسيحي»، آلاف الرجال اتَّجهوا من كلِّ أوربَّا نحو روما، الملوك فقط ظلُّوا أصمّاء وغير مكترثين، بعد ذلك سافر البابا إلى «أسيس» ثمّ إلى «أنكونا» حيث تأخّر أسطول فينيسا في الوصول، وعندما وصلت السفن الحربية الفينيسية في النهاية، كان البابا يحتضر وقال: «حتَّى اليوم كنت أفتقد أسطولًا، أمَّا الآن فسيفتقدني

---

(1) Giovanni Boccaccio (1313 -1375).
كاتب إيطالي، يعتبر من آباء الأدب الإيطالي إلى جانب دانتي. له مؤلّفات باللغة اللاتينية أيضًا.

(2) قام بالدعوة لحملة صليبية ضدّ الأتراك بعد سقوط القسطنطينية عام (1453)، لكن لم يكتب لمجهوداته النجاح..

الأسطول»، ثم مات ومعه ماتت الحملة الصليبية. وقال فارويل: الكُتّاب يُفسدون كلَّ شيء دائمًا. وأنا: لقد قام بحماية بينتوركشيو. وفارويل: ليست لديَّ أدنى فكرة عمَّن يكون هذا البينتوركشيو. وأنا: رسَّام. وفارويل: لقد خمَّنت هذا، لكن مَن هو؟ وأنا: مَن قام برسم جداريات كاتدرائية سيينا. وفارويل: هل زرت إيطاليا؟ وأنا: نعم. وفارويل: كلّ شيء يتدهور، كلّ شيء يبتلعه الزمن، لكنَّ أوّل مَن سيبتلعهم هم التشيليّون. وأنا: نعم. وفارويل: هل تعرف حكايات بابوات آخرين؟ وأنا: كلّهم. وفارويل: حكاية أدريان الثاني؟ وأنا: بابا من سنة 867 حتَّى سنة 872، وتُحكى عنه قصة مثيرة، عندما ذهب لوتاريو الثاني إلى إيطاليا، سأله البابا إن كان قد أقام مجدَّدًا علاقات مع فالدرادا، التي طردها البابا السابق نيكولاس الأوّل، وبعد ذلك اقترب الإمبراطور لوتاريو مرتعشًا من المذبح في مونت كاسينو، حيث كان لقاؤه معها، وانتظره البابا أمام المذبح، ولكنّ البابا لم يكن مرتعشًا. وفارويل: لا بدّ أنّه شعر بشيء من الخوف. وأنا: نعم، وفارويل: وحكاية البابا لاندون؟ وأنا: لا يُعرف سوى القليل عن هذا البابا، باستثناء أنّه كان البابا من سنة 913 حتَّى سنة 914، وعَيَّن لرافينا أسقفًا من موالي تيودورا[1]، وقد جلس هذا على الكرسي البابوي بعد موت

(1) (870-916) تيودورا، والدة مورازيا، التي طالتها الإشاعات بأنها عشيقة الباب سيرجي الثالي. تحكّمت مع زوجها تيوفيلاكتو في روما والفاتيكان في بدايات القرن العاشر، وهي الفترة التي عرفت باسم «مملكة العاهرات».

لاندون. وفارويل: هذا البابا كان اسمه غريبًا حقًّا. وأنا: نعم. وفارويل: انظر، لقد اختفى خيال الظلِّ. وأنا: بالفعل، لقد اختفى. وفارويل: يا لَلغرابة، ماذا يكون قد حدث؟ وأنا: ربّما لن نعرف ما حدث مطلقًا. وفارويل: لم تعد هناك ظلال، لم تعد هناك سرعة، لم يعد هناك هذا الشعور بالوجود داخل نيتجاتيف صورة فوتوغرافية، هل كنّا نحلم؟ وأنا: ربّما لن نعرف هذا مطلقًا. وبعد ذلك دفع فارويل ثمن الطعام وصحبته حتَّى باب بيته، حيث لم أرغب في الدخول، لأنَّ كلَّ شيء كان يوحي بالغرق، وبعد ذلك وجدت نفسي ماشيًا بمفردي في شوارع سانتياجو بينما أفكّر في ألكسندر الثالث وأوربانو الرابع وبونيفاثيو الثامن، بينما نسمة باردة تداعب وجهي في محاولة لإيقاظي بالكامل، برغم أنَّ استيقاظي بالكامل كان مستحيلًا، فقد كنت في أعماق عقلي أسمع أصوات البابوات، مثل الصراخ البعيد لسرب من الطيور، وهي علامة لا تخطئ على أنَّ جزءًا من وعيي كان لا يزال يحلم، أو أنّني بإرادتي لم أكن أريد الخروج من متاهة الأحلام، ساحة «مارس» التي يختفي فيها الشاب الهَرِم، وحيث يختفي الشعراء الراحلون الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت، ومنذ وقوعهم النهائي في النسيان منذ قليل، يشيدون داخل تجويف جمجمتي شواهد بائسة لأسمائهم، لصورهم الملتصقة على كرتون أسود، لأعمالهم المطحونة، لكنَّ الشابَّ الهَرِم لم يكن هكذا، في ذلك الوقت كان مجرّد طفل من الجنوب، من الحدود الممطرة ومن

أكثر أنهار الوطن غزارةً، نهر بيو بيو المخيف، لكنَّه الآن، أحيانًا، يختلف على وسط حشد الشعراء التشيليين وأعمالهم الذين كان الزمن الساكن يطحنهم في ذلك الوقت، عندما كنت أبتعد عن بيت فارويل وسط ليل سانتياجو، وما زال يطحنهم الآن بينما أرفع جسدي المتَّكئ على كوع واحد، وسيواصل طحنهم عندما لن أعود هنا، أي عندما أختفي من الوجود أو عندما توجد ذكراي فقط، ذكراي التي تشبه شفقًا، تمامًا مثلما تشبه ذكرى الآخرين حوتًا أو هضبة عارية أو سفينة أو عمود دخان أو مدينة كالمتاهة، ذكراي التي تشبه شفقًا ستتأمّل بأجفان بالكاد شبه مفتوحة تشنجات الزمن الخفيفة والطحن، الزمن الذي يتحرّك في ساحات مارس مثل نسمة افتراضية، وفي دوّامته يختنق المؤلفون الذين كتبت عروضًا لكتبهم مثل وجوه لـ«ديلفيل»، المؤلّفون الذين كتبت نقدًا عنهم، محتضري تشيلي وأمريكا الذين نطقوا باسمي، قسّ ايباكاتشي، قسّ ايباكاتشي، تذكّرنا بينما تبتعد بخطوات راقصة عن بيت فارويل، تذكّرنا بينما تحملك خطواتك الواسعة داخل ليل سانتياجو القاسي، قسّ ايباكاتشي، قسّ ايباكاتشي، فكّر في طموحاتنا وفي أشواقنا، وفي وضعنا البائس كرجال ومواطنين، أبناء وطن واحد وكُتّاب، بينما تلج ثنايا الزمن الوهمية، ذلك الزمن الذي يمكننا نحن فقط أن نشعر به في ثلاثة أبعاد، لكن في الحقيقة له أربعة وربّما خمسة مثل طابية لظلّ سورديللو، أيّ سورديلو، الذي لا يستطيع هو نفسه تدمير ظله.

ترهات. أعرف. حماقات. غباء. جنون. أكاذيب. سخافات تهلّ عليَّ في حشود من دون استدعاء، بينما يلج المرء في ليل مصيره. مصيري. سورديللو الخاصّ بي. بداية مسيرة براقة. لكن لم يكن كلّ شيء بهذه السهولة. حتَّى الصلاة تسبّب الملل على المدى البعيد. كتبت نقدًا. كتبت شعرًا. اكتشفت شعراء. أثنيتُ عليهم. أنقذت أرواحًا غرقى. ربّما كنت أكثر أعضاء (الأوبوس داي)[1] تحرّرًا في الجمهورية. الآن يراقبني الشابّ الهَرِم من ناصية مظلمة ويصرخ فيَّ. أسمع بعض كلماته. يقول إنّني أنتمي للأوبوس داي. أقول له، لم أخف هذا مطلقًا. لكنّه أيضًا لم يكن يسمعني بالقطع... أراه يحرّك فكَّيه وشفتيه وأعرف أنَّه يصرخ فيَّ، لكنّني لا أسمع كلماته. يراني أهمس متّكأً على كوعي بينما يبحر فراشي في ثنايا الحمَّى، لكنّه لم يكن يسمع كلماتي. أريد أن أقول له إنَّنا لن نصل إلى أيِّ نتيجة بهذه الطريقة. أريد أن أقول له حتَّى شعراء الحزب الشيوعي التشيلي يستميتون لأكتب شيئًا لطيفًا عن أشعارهم. وقد كتبت أشياء لطيفة عن أشعارهم. فلنكن

---

(1) هيئة تابعة للكنسية الكاثوليكية. تأسّست في إسبانيا عام 1928 على يد القَسّ «خوسيه ماريا إسكريبا». تمّت الموافقة عليها لأوّل مرّة عام 1941 من جانب أسقف مدريد. وفي عام 1950 تمّ الاعتراف بها من جانب الفاتيكان كهيئة مدنية أو علمانية تتبع قوانينها وقواعدها الخاصّة. الغرض من هذه الهيئة هو نشر (القدسية) في العالم، بحيث يمكن لأيّ فرد أن يعانق القدسية عن طريق الإيمان والعمل الصالح وحبّ الآخر. معظم أعضائها في أوربًا وأمريكا اللاتينية من الطبقات العليا، أي أنّه يمكن تعريفها كنادٍ أو هيئة أرستقراطية بصبغة دينية.

متحضِّرين، أهمس. لكنّه لا يسمعني. من حين إلى آخر تصل إحدى كلماته بوضوح. شتائم، وماذا غير هذا. شاذّ، أهذا ما يقول؟ يا عضو الأوبوس داي، أهذا ما يقول؟ يا عضو الأوبوس داي الشاذّ، أهذا ما يقول؟ بعد ذلك يدور فراشي ولم أعد أسمعه. كم هو مبهج ألَّا أسمع شيئًا. كم هو مبهج أن أتوقّف عن الاتِّكاء على كوعي، على هذه العظام المرهقة المسكينة، والتمدُّد والاسترخاء والنظر إلى السماء الرمادية وترك الفراش ليسبح بإرادة القدِّيسين وإغماض الجفنين وفقدان الذاكرة والاستماع إلى نبض الدم فقط. لكن في تلك اللحظة تتحرّك شفتاي وأواصل الكلام. لم أُخفِ مطلقًا انتمائي إلى الأوبوس داي، لا أيُّها الشابُّ، أقول هذا للشابِّ الهَرِم، برغم أنّني لم أعد أراه، برغم أنّني لا أعرف إن كان خلف ظهري أم إلى جانبي أم أنّه مختبئ في المستنقعات التي تحفُّ النهر. لم أخفِ هذا مطلقًا. كلُّ الناس تعرف هذا. كلُّ الناس في تشيلي تعرف. أنت فقط لا تعرف هذا، يا مَن تبدو أحيانًا ثقيل الظلِّ أكثر من الواقع. صَمْتٌ. الشابّ الهَرِم لا يردّ. من بعيد أسمع شيئًا كأنّ قطيعًا من القرود يتكلّم، كلّهم في الوقت نفسه، مهتاجون، فأقوم بإخراج يد من تحت البطاطين وألمس النهر وبصعوبة أُغيّر اتّجاه الفراش مستخدمًا يدي كمجداف، محرّكًا أصابعي الأربعة كمروحة اليد، وعندما دار الفراش كان كلُّ ما رأيته هو الغابة والنهر وما يطفو على سطحه والسماء التي لم تعد رمادية وإنَّما باهية الزرقة وسحابتين

صغيرتين للغاية وبعيدتين للغاية تجريان مثل طفلين يدفعهما الريح. زفاح القرود كان قد تلاشى. أي راحة! أي صمت! أي سلام! سلام مناسب لتذكّر سماوات أخرى زرقاء، سحب أخرى دقيقة تجري مع الريح من الغرب إلى الشرق، وتلاشى الشعور بالملل الذي كانوا يبعثونه في روحي. شوارع صفراء وسماوات زرقاوات. ومع اقتراب المرء من وسط المدينة كانت الشوارع تفقد هذا الصفار المقبض لتتحوَّل إلى شوارع رمادية، نظيفة ومرصوفة، برغم أنّني أعرف أنّه تحت اللون الرمادي، لو نبش المرء قليلًا، لوجد اللّون الأصفر. ولم يكن هذا يشعرني بالإحباط فقط، وإنّما بالملل أيضًا، وربّما يكون الإحباط قد تحوّل إلى ملل، من يدري؟! المؤكّد هو وجود فترة فيها شوارع صفراء وسماوات زرقاء لامعة وملل عميق، توقّف فيها نشاطي كشاعرٍ، أو بشكل أدقّ نشاطي كشاعرٍ شهد تغيُّرًا خطيرًا، لو كان الأمر يتعلَّق بالكتابة، فقد كنت أكتب، لكن قصائد مليئة بالسباب والهرطقات، وأشياء أسوأ كان لديّ رجاحة عقل لتدميرها ما إن يطلع النهار، من دون أن أُطلع عليها أحدًا، برغم أنّه في تلك الحالة كان الكثيرون سيشعرون بالفخر لهذا التمييز، قصائد كانت دلالتها النهائية، أو ما كنت أظنّ أنّه دلالتها النهائية يحملني إلى شعور بالحيرة والاضطراب يستمرّ طوال اليوم... وهذا الشعور بالحيرة والاضطراب كان يتزامن مع حالة من الملل والاكتئاب. الملل والاكتئاب كانا كبيرين. الحيرة والاضطراب كانا صغيرين

ويعيشان مدموجين في أحد أركـان الحالة العامّة للمَلَل والاكتئاب. مثل جرح داخل جرح آخر. وبعد ذلك توقّفت عن إلقاء المحاضرات، توقّفت عن إقامة القدّاس، توقّفت عن قراءة الصحف كلَّ صباح والتعليق على الأخبار مع أخوتي. توقّفت عن كتابة مقالاتي الأدبية بسلاسة (برغم أنّني لم أنقطع عن الكتابة). بعض الشعراء اقتربوا وسألوني عمَّا بي. بعض القساوسة اقتربوا وسألوني عمَّا يغشى روحي. اعترفت وصلّيت. لكنَّ وجهي الأرِق كان يفضحني. بالفعل، في تلك الأيّام كنت أنام قليلًا، أحيانًا ثلاث ساعات، أحيانًا ساعتين. في الصباح كنت أنشغل بالسير من الأبرشية حتَّى الأحياء الفقيرة، من الأحياء الفقيرة حتَّى الضواحي، من الضواحي حتَّى وسط سانتياجو. ذا مساءٍ هجم عليَّ اثنان من المجرمين. لا أحمل نقودًا يا ابنيَّ، قلتُ لهما. بالطبع معك نقود أيُّها القسّ الحقير، ردّ عليَّ المسلّحان. انتهيت إلى إعطائهما محفظتي وصلّيت من أجلهما، لكن ليس كثيرًا. الملل الذي كنت أشعر به كان ضاريًا. الاكتئاب لم يكن أقلَّ منه. ولهذا، منذ ذلك اليوم، غيّرت خطَّ سيري. اخترت أحياءً أقلَّ خطرًا، اخترت أحياءً أستطيع منها تأمُّل عَظَمة سلاسل الجبال، عندما كان لا يزال من الممكن في هذه المدينة تأمُّل سلاسل الجبال في أيِّ وقت من العام، من دون أن يحجبها ستار التلوث. وكنتُ أمشي وأمشي، وأحيانًا كنت أركب الميكروباص وأواصل التجوال برأس ملتصقة بزجاج النوافذ وأحيانًا كان

يقلّني تاكسي وأواصل التجوال بين الأصفر البغيض والأزرق اللامع البغيض لاكتئابي، من وسط المدينة حتَّى الأبرشية، من الأبرشية حتَّى ضاحية «لاس كوندس»، من «لاس كوندس» حتَّى «بروفيدنسيا»، من«بروفيدنسيا» حتَّى «ميدان إيطاليا» و«حدائق فوريستال»، وبعد ذلك العودة إلى وسط المدينة والعودة إلى الأبرشية، ردائي الذي بهت لونُه من عصف الريح، ردائي الذي كان مثل ظلِّي، رايتي السوداء، المُنشاة قليلًا، نغمتي، ملابس نظيفة، داكنة، بئر تغرق فيها خطايا تشيلي ولا تخرج ثانية. لكنَّ هذا الدوران لم يكن ذا نفع. الملل لم يكن يتناقص، على العكس، أحيانًا في الظهيرة كان لا يُطاق ويملأ رأسي بأفكار مجنونة. أحيانًا، بينما أرتعد من البرد، كنت أدخل كافيتريا وأطلب زجاجة بليتز. أجلس على مقعد عالٍ وأنظر بعينيين كأنَّهما عينيّ شاة مذبوحةٍ إلى نقط الماء التي تتجمّع على سطح الزجاجة، بينما روح التقزّز، في داخلي، تجهزّني لمشهد غير ممكن، لنقطة تتحدّى قوانين الطبيعة وتصعد على سطح الزجاجة حتَّى الوصول إلى فتحتها. في تلك اللحظة كنت أغلق عيني وأُصَلّي أو أحاول الصلاة بينما تجتاح القشعريرة جسدي، والأطفال والمراهقون يجرون من جانب إلى آخر في بلاسا دي أرماس «ساحة الحرب»، فرحين بشمس الصيف، والضحكات المكتومة التي تصل من كلّ مكان كانت تتحوّل إلى أدقِّ التعليقات عن هزيمتي. بعد ذلك شربت بعض الرشفات من بليتز المثلّجة وأخذت أسير من جديد.

في تلك الأيّام عرفت السيِّد «بعر»[1] وبعد ذلك السيِّد «هرك»[2]. كانا يديران شركة للاستيراد والتصدير لحساب رجل أجنبي لم أتشرف بمعرفته قطّ. أعتقد أنّهم كانوا يعلّبون بلح البحر التشيلي ويرسلونه إلى فرنسا وألمانيا. قابلت السيِّد «بعر» (أو أنّ السيِّد بعر قابلني) في شارع أصفر. كنت ميّتًا من البرد وسمعت صوتًا يناديني. عندما التفتُّ رأيته: رجلًا متوسّط العمر، متوسط الطول، لم يكن نحيفًا أو رفيعًا، ذا وجه عادي تكاد تهيمن عليه الملامح الأصلية أكثر من الأوربية، كان يرتدي بذلة فاتحة، وقبّعة شديدة الأناقة، وكان يشير إليَّ في وسط الشارع الأصفر، على مسافة قريبة، بينما في آخر الشارع كانت الأرض تلمع بمصابيحَ بارزةٍ متتالية من الزجاج أو البلاستيك. لم أره من قبل، لكن يبدو أنّه يعرفني معرفة عُمر. قال لي إنّ الأب جارثيا ايراثوريث والأب مونيوث لاجيا حدّثاه عنِّي، وقد كانا عندي في منزلة عالية وأتمتع بأفضالهما، وأنَّ هذين السيِّدين الحكيمين قد أوصيا بي بحماس، من دون تحفّظات، من أجل مَهمّة خطيرة في أوربّا، لا شكّ أنّهما

---

(1) قام المؤلّف بحيلة لغوية عن طريق تغيير كلمة "Miedo" التي تعني (خوف، أو رعب) إلى "Odeim"، وأطلق هذا الاسم على الشخصية. وكما يمكن الملاحظة، فهي الكلمة نفسها لكن بترتيب معكوس للحروف. وبهذه الحيلة يريد المؤلّف أن يقدّم تلخيصًا لملامح الشخصية. ولترجمتها قمنا بتغيير بالحيلة نفسها وهي كتابة ترجمة الاسم بترتيب معكوس فحوّلنا رعب إلى بعر.

(2) اسم آخر قام المؤلّف بإخضاعه للحيلة اللغوية نفسها السابقة. الاسم في الأصل هو "Oido"، وهو ترتيب معكوس لكلمة "Odio" التي تعني (كره). وقمنا بتغيير ترتيب حروف الاسم أيضًا.

كانا يفكّران أنّ رحلة طويلة في القارة القديمة كانت أفضل شيء لكي أستعيدَ بعضًا من البهجة والطاقة اللتين فقدتهما، وما زلت أفقدهما كما هو واضح، مثل جرح لا يريد الالتئام، وعلى المدى البعيد قد يسبّب الموت، على الأقلّ الموتَ الروحي، لمَن يعاني منه. في البداية أبديت حيرةً ورفضًا، فلم يكن هناك أكثر من شئون السيِّد بعر اختلافًا عن شؤوني، لكنّني قبلت ركوب سيّارته والذهاب إلى مطعم في شارع «بانديراس»، مكانٌ جار عليه الزمنُ اسمُه «مكتبي»، حيث تكلّم السيِّد بعر عن أشخاص أعرفهم، من دون أن يبتعد عن السبب الحقيقي الذي دفعه إلى لقائي، من بينهم فارويل وشعراء عديدون من الموجة الشعرية الجديدة في تشيلي والذين كنت ألتقي بهم في ذلك الوقت، في محاولة لإفهامي بدرايته بأكثر من جانب في عالمي، ليس الكَنَسي فقط، لكن أيضًا بعالم الاهتمامات النخبوية، بل والوظيفي، فقد ذكر اسم رئيس تحرير الجريدة التي أنشر فيها مقالاتي. مع هذا، كان واضحًا أنّ معرفته بهم سطحية. بعد ذلك تبادل السيِّد بعر بعض الكلمات مع مالك «مكتبي»، وبعد وقت قصير خرجنا من المكان مسرعين من دون سبب واضح لمغادرتنا، وتمشّينا بذراعين متأبطين في الشوارع القريبة حتَّى وصلنا إلى مطعم آخر أصغر وأقلَّ كآبة، حيث تمّ استقبال السيِّد بعر كأنّه مالك المكان وفيه أكلنا حتَّى امتلأنا، من دون الاهتمام بالحرِّ في الخارج والذي لا يساعد على هضم هذا الطعام الكثير المتنوِّع. أصرَّ على أن نتناول القهوة في

«هاييتي»، مكان كريه الرائحة يتجمّع فيه كلُّ الأوغاد الذين يعملون في وسط سانتياجو، نوّاب مديرين، نوّاب أعضاء منتدبين، نوّاب رؤساء، وفيه يعتبر تناول القهوة وقوفا علامة على الذوق الرفيع، مستندين بالمَرافق على البار أو منتثرين في أنحاء المحلّ الذي كان كبيرًا، وأتذكّر واجهتين كبيرتين من الزجاج، تمتدّان من السقف حتَّى الأرض تقريبًا، بحيث إنّ الواقفين في الداخل، بفنجان القهوة في يد وحافظة الأوراق أو الحقيبة الكالحة في اليد الأخرى يشكّلون عرضًا حيًّا للمُشاة، الذين من المستحيل عليهم كبشرٍ أن يمرُّوا أمام المحلّ المذكور من دون أن ينظروا، حتَّى لو كانت نظرة بطرف العين، إلى تلك الكتلة البشرية المتجمّعة في الداخل، في قلّة راحة أزلية. ووجدتُ نفسي منقادًا إلى تلك المغارة، أنا، الإنسان الذي صنع اسمًا على نحوٍ ما، بل في الحقيقة كان لي اسمان، أحدهما مشهور، وبعض الأعداء، والكثير من الأصدقاء، وبرغم أنّني حاولت الاعتراض، الرفض، كان السيِّد بعر يعرف كيف يكون مقنعًا عندما يريد. صامتًا في ركن من دون أن أرفع عيني عن واجهة «هاييتي»، كنت أنتظر عودة مضيفي من البار بفنجانَيْ قهوة يتصاعد منهما البخار، أحسن قهوة كما يقول العامّة، وأخذت أفكّر في طبيعة العمل الذي يريد أن يعرضه علي السيِّد سالف الذكر... بعد ذلك عاد السيِّد بعر إلى جانبي، وبدأنا نشرب القهوة، واقفين. أتذكّر أنّه تكلّم. تكلّم وابتسم، لكنّني لم أستطع سماع أيّ شيء لأنّ

أصوات نوّاب السكرتارية في «هاييتي» كانت كالرعد ولا تترك مجالًا لصوت واحد آخر. كنت أستطيع الاقتراب، وضع أذني بجانب شفتَي محدِّثي مثلما كان يفعل باقي الزبائن، لكنّني فضّلت البقاء في مكاني. تصنّعت الفهم وتركت عينيَّ تتوهان في المحلّ الخالي من المقاعد. بعض الأشخاص تبادلوا النظر معي. أعتقد أنّني أكتشف ألمًا رهيبًا في وجوه بعضهم. الخنازير تعاني أيضًا، قلتُ لنفسي. وندمت على هذه الفكرة في الحال. الخنازير تعاني، نعم، وألمهم يجعلهم أكثر نبلًا ونظافة. ومض مصباحٌ داخل رأسي، وربّما داخل شفقتي: الخنازير أيضًا كانت أنشودة في عظمة الربّ، وإن لم تكن أنشودة، إذ قد يكون هذا مبالَغًا فيه، فقد كانت همهمة، مقطعًا، كلمات تنشدها كلّ الأشياء الحية. حاولت أن ألتقط أيَّ حوار من الزبائن. كان مستحيلًا. لم أسمع سوى كلماتٍ منفرطة، اللكنة التشيلية، كلماتٍ لا معنًى لها، لكن كان فيها نفس الرتابة والملل اللانهائيّين لأبناء بلدي. بعد ذلك أخذني السيِّد بعر من ذراعي، ووجدت نفسي في الشارع مرّة أخرى، من دون أن أعرف كيف، سائرًا بجانبه. سوف أعرّفك بشريكي، السيِّد كهر، قال. طنين في أذني. شعرتُ أنّني أسمعه للمرّة الأولى. سرنا في شارع أصفر. لم يكن هناك أناس كثيرون، لكن من حين إلى آخر يختفي رجل بنظّارة داكنة في إحدى البوّابات، امرأة بمنديل على رأسها. مكتب الاستيراد والتصدير كان في الطابق الرابع. المصعد كان معطّلًا. بعض التمارين لن تضرَّ، تساعد على

الهضم، كان هذا رأي السيِّد بعر. تبعته. في الاستقبال لم يكن هناك أحد. السكرتيرة ذهبت إلى الغداء، قال السيِّد بعر. ظللت ألهث ساكنًا بينما مرشدي يدقّ بالعقدة الثانية من الإصبع الوسطى على الباب الزجاجي المصنفر لمكتب شريكه. صوت حادٌّ قال ادخل. هيا بنا، قال لي السيِّد بعر. كان السيِّد هرك جالسا خلف مائدة معدنية وعندما سمع اسمي نهض، دار حول المائدة وسلَّم عليَّ بحرارة. كان نحيفا أشقر، جلده شديد الشحوب، بوجنتين محمرّتين، كأنه يقوم بتدليكها بماء اللافندر من وقت لآخر. مع هذا، لم يكن يبعث رائحة لافندر. دعانا للجلوس وبعد أن نظر لي من فوق لتحت عاد إلى مكانه خلف المائدة. ثم قال، أنا السيِّد هرك، هرك، وليس «كره». بالطبع، قلت. أنت الأب أوروتيا لاكروا. هو نفسه، قلت. بجانبي، كان السيِّد بعر مبتسمًا ويحني رأسه موافقًا في صمت. أوروتيا لقب من أصل باسكي، أليس كذلك؟ بالفعل، قلت. لاكروا فرنسي، بالطبع. السيِّد بعر وأنا هززنا رأسينا بالموافقة في الوقت نفسه. هل تعرف أصل هرك؟ لا أعرف، قلت. إنّه اسم نصفه فنلندي والنصف الآخر ليتواني. بالضبط، قال السيِّد بعر. في زمن بعيد كان بين الليتوانيين والفنلنديين تجارة مزدهرة، بالنسبة لهم كان البحر البلطي كالجسر، كالنهر، كترعةٍ، ترعةٍ عليها عددٌ لا نهائي من الجسور السوداء، حاول أن تتخيّل هذا. أتخيّله، قلتُ. ابتسم السيِّد هرك. هل تتخيله؟ نعم، أتخيّله. جسورًا سوداءَ، نعم يا سيّدي، غمغم

السيِّد بعر بجانبي. وفنلندنيون صغار وليتوانيون صغار يعبرونها من دون توقّف، قال السيِّد هرك. نهارًا وليلًا. على ضوء القمر أو على ضوء مشاعل صغيرة. من دون أن يرَوا شيئًا، من الذاكرة. من دون أن يشعروا بالبرد الذي ينفذ حتَّى النخاع في تلك الأصقاع، من دون أن يشعروا بشيء، ببساطة أحياء وفي حركة دائمة. حتَّى من دون أن يشعروا أنَّهم أحياء: في حركة دائمة، متمرِّسون على عادة عبور البحر البلطي باتّجاه أو آخر. شيء طبيعي. شيء طبيعي؟ أحنيتُ رأسي موافقًا من جديد. أخرج السيِّد بعر علبة سجائر. قال السيِّد هرك إنّه توقّف عن التدخين منذ عشرة أعوام وإلى الأبد. رفضت السيجارة التي عرضها عليَّ السيِّد بعر. سألت عن طبيعة العمل الذي يريدون أن يعرضوه عليَّ. إنَّها منحة دراسية أكثر منها عملًا، قال السيِّد هرك. نحن متخصِّصون في الاستيراد والتصدير، لكنِّنا نطرق مجالات أخرى، قال السيِّد بعر. بالتحديد، نحن الآن نعمل لحساب مركز الدراسات في الأسقفية. لديهم مشكلةٌ ونحن نبحث عن الشخص المناسب لحلِّ المشكلة، قال السيِّد هرك. إنَّهم بحاجة إلى شخص يقوم بعمل دراسة ونحن نوفِّر لهم الشخص المناسب. نسدُّ الحاجات، نصنع حلولًا. وأنا الشخص المناسب؟ سألتُ. لا يوجد شخص تجتمع فيه كلُّ المواصفات مثلك، يا أبتِ، قال السيِّد كهر. أودُّ أن تشرحا لي ماهية هذا الأمر، قلتُ لهما. نظر إليّ السيِّد بعر بدهشة. قبل أن يعترض قلت له إنِّني أريد أن أسمع العرض من جديد، لكن من

السيِّد هرك هذه المرّة. وهذا لم يتمنّع. مركز الدراسات في الأسقفية يريد أن يقوم أحد بعمل دراسة حول العناية بالكنائس. في تشيلي، كما هو متوقَّع، لا أحد يعرف أيَّ شيء عن هذا الموضوع. على العكس، في أوربَّا، الأبحاث وصلت إلى درجة متقدِّمة، وفي بعض الحالات قيل إنّه تمَّ التوصُّل إلى حلول نهائية لإيقاف التدهور في بيوت الربِّ. عملي ينحصر في السفر، زيارة الكنائس الرائدة في إيجاد حلول ضدَّ التدهور، المقارنة بين مختلف الأنظمة، كتابة تقرير والعودة. ما هي المدّة؟ يمكنني أن أمضيَ حتَّى عام متجوِّلًا في بلدان أوربية مختلفة. إن لم يكن العمل قد انتهى بعد عام، يمكنني أن أمدَّ الفترة إلى عام ونصف العام. سيتمُّ دفع مرتبي كاملًا كلَّ شهر، بالإضافة إلى علاوة حسب النفقات الإضافية التي تترتّب على تجوالي في أوربَّا. يمكنني أن أنام في فنادق، أو في استراحات الكنائس المنتشرة بطول وعرض بلدان القارة القديمة. بالطبع، يبدو العمل مخلوقًا من أجلي. وافقت. خلال الأيّام التالية التقيت كثيرًا السيِّدَ هرك والسيِّدَ بعر، اللذين تكفَّلا بكلِّ الأوراق المطلوبة لإقامتي في أوربَّا. برغم هذا، لا يمكنني أن أقول إنّني أقمت علاقة معهما. كانا يتمتَّعان بالكفاءة، أدركت هذا بسرعة، لكنَّهما يفتقدان إلى اللباقة. كما لم يكونا يعرفان أيَّ شيء عن الأدب، عدا قصيدتين خفيفتين لنيرودا، كان يمكنهما إلقاؤهما غيبًا، وهو ما كانا يفعلان. لكنَّهما كانا يستطيعان حلَّ مشاكل إدارية تبدو لي مستحيلة الحلِّ،

وأوفيا بتمهيد الطريق إلى وجهتي الجديدة. مع اقتراب يوم سفري، أصبحت أكثر عصبية. أخذت وقتي لتوديع أصدقائي، الذين لم يكونوا يصدِّقون كلَّ هذا التوفيق. توصَّلت إلى اتّفاق مع الجريدة لكي أواصل إرسال مقالاتي وعروضي الأدبية من أوربًّا. ذات صباحٍ ودَّعتُ أمِّي العجوز وأخذت القطار إلى «فالبارايسو»، حيث صعدت إلى «دونيتزي»، سفينة تحمل العَلَم الإيطالي وتقطع طريق جنوة ـ فالبارايسو ـ جنوة. السفر كان بطيئًا ويساعد على الاستشفاء، ولم يخلُ من وجود صداقاتٍ ما زالت مستمرّة حتَّى اليوم، حتَّى في أكثر وجوهها ضعفًا وتهذُّبًا، أي إرسال بطاقات التهنئة بأعياد الميلاد. توقّفنا في «أريكا» ومن فوق سطح السفينة قمت بتصوير جبالنا العظيمة. توقّفنا في «كاياو» وفي «جواياكيل» (عندما عبرنا خطَّ الاستواء كان من دواعي سروري أن أرأَسَ قُدَّاسًا لكلِّ المسافرين) وفي «بوينابينتورا»، حيث قرأت لهم ليلًا والسفينة راسية وسط النجوم «الليلي» لخوسيه أسونثيون سيلفا، تكريم بسيط للأدب الكولومبي، وقد صفّق له الجميع بلا استثناء، حتَّى الطاقم الإيطالي الذي لم يكن يفهم الإسبانية جيِّدًا، لكنّه استطاع الإحساسَ بالموسيقى العميقة في كلمات الشاعر المنتحِر، وفي بنما، خصر أمريكا، وفي كريستوبال وفي كولون، المدينة المقسومة، حيث حاول بعض التعساء سرقتي من دون طائل، وفي ماراكايبو، النشِطة التي تفوح منها رائحةُ البترول، وبعد ذلك عبرنا المحيط الأطلنطي، وقمت، بناءً على مطلب

شعبي، بإقامة قُدّاس آخر لكلِّ المسافرين، فقد أمضينا ثلاثة أيّام من العواصف والأمواج العاتية وجاء الكثيرون للاعتراف، وبعد ذلك توقَّفنا في لشبونة، حيث نزلت وصلّيت في أوّل كنيسة بالميناء، وبعد ذلك توقَّفت «دونيزتي» في «ملقة» وفي برشلونة، وذات صباح شتوي وصلنا في النهاية إلى جنوة، حيثُ ودَّعت أصدقائي الجُدد وأقمت قُدَّاسًا من أجل بعضهم في صالة القراءة بالسفينة، صالة أرضها من خشب الزان وجدرانها من خشب الساج، يتدلَّى من سقفها مصباح زجاجي كبير وفيها كراسي مريحة أمضيت عليها ساعات كثيرة سعيدة مستغرقًا في قراءة الكلاسيكيِّين الإغريق والرومان والمعاصرين التشيليين. بعد أن استعدتُ في النهاية بهجتي كقارئ، استعدتُ فطرتي السوِيَّة، ومستعفيًا تمامًا، بينما كان المركب يخوض البحار، الشفق البحري، الليل الأطلنطي الذي لا يمكن سبر أغواره، وأنا كنت أقرأ على راحتي جالسًا في تلك الصالة من الخشب النبيل مع رائحة البحر ورائحة الكحوليات القوية ورائحة الكتب والعزلة، إذ إنَّ أوقات سعادتي كانت تمتدُّ حتَّى ساعات لا يجرؤ أحد على التمشية فيها على سطح دونيزيتي، فيما عدا ظلالَ العصاة التي كانت تحرص على ألَّا تقاطعني، حرص شديد على عدم التدخُّل في قراءاتي، السعادة، البهجة المستعادة، المعنى الحقيقي للصلاة، دعواتي التي كانت تصعد حتَّى تتجاوز السحب، هناك حيث لا يوجد إلَّا الموسيقى، تلك التي نطلق

عليها موسيقى ملائكية، فضاء غير بشري، لكن من دون شكٍّ الوحيد الذي يمكننا ـ نحنُ البشرَ ـ السكنى فيه، حتَّى لو كان هذا خيالًا، فضاء لا يمكن السكنى فيه، لكنَّه الفضاء الوحيد الذي يستحقُّ السكنى فيه، فضاء لن نوجد فيه، لكنَّه الفضاء الوحيد الذي يمكننا أن نجد فيه أنفسنا، وبعد ذلك نزلت إلى الأرض، أرض إيطالية، وقلت وداعًا لدونيزتي وتقدَّمت عبر طرق أوربًا، عازمًا على إنجاز عمل جيّد، بروح خفيفة، مليئًا بالثقة، العزم والإيمان. أولى الكنائس التي زرتُها كانت كنيسة «سانتا ماريا ديل دولور بيربيتو»، في مدينة «بيستويا». كنتُ أتوقّع لقاء كاهن عجوز، لكن دهشتي كانت كبيرة عندما استقبلني قسٌّ لم يبلغ عامَه الثلاثين بعد. كان اسمُه الأب بييترو. وأوضح لي أنَّ السيِّد بعر كتب له خطابًا يخبره بوصولي، وأنَّ التلوث البيئي في بيستويا لم يكن العامل الأكبر في تدمير الآثار الرومانسيكية والقوطية الكبيرة، لكنّه التلوث الحيواني، بشكل أكثرَ دقّة، فضلاتُ الحمام الذي تضاعف عددُه بشكل هندسي في بستويا وفي بقية المدن والقرى الأوربِّية. ولهذا الغرض يوجد حلٌّ ناجع، لكنَّه ما زال سلاحًا في مرحلة التجريب وسيقوم بإطلاعي عليه في اليوم التالي. تلك الليلة أتذكَّر أنَّني نمت في غرفة بالمبنى الملحق بالكنيسة، وأنَّ نومي كان متقطِّعًا بيقظات فجائية حيث لم أكن أدري إن كنت في السفينة أم في تشيلي، وإن كنت في تشيلي، فلنفترض هذا، لم أكن أعرف إن كنت في بيت عائلتي أو مسكن

المدرسة أو بيت صديق، وبرغم أنَّني كنت أنتبه أحيانًا إلى أنَّني أتواجد في غرفة ملحقة بكنيسة أوربِّية، لم أكن أعرف في أيِّ بلد توجد هذه الغرفة ولا ما أفعله هناك. في الصباح أيقظتني خادمةٌ في الكنيسة. كان اسمُها أنطونيا وقال لي: أبتِ، السيِّد بييترو ينتظرك، اخرج بسرعة وإلَّا اشتعل غضبه. هكذا. لهذا اغتسلت وارتديت ردائي وخرجت إلى باحة بيت القساوسة وهناك كان الأبُ الشابُّ بييترو، مرتديًا رداءً أكثر أناقة من ردائي بكثير، ويده اليسرى محشوَّة داخل قُفَّاز سميك من الجلد والمعدن، وفي الهواء، في الجزء المربع من السماء الذي ينهض على الجدران الذهبية اللون، لمحت ظلَّ طائر. وعندما رآني الأب بييترو قال لي: فلنصعد إلى البرج. وبدون ردٍّ منِّي، تبعت خطواتِه وصعدنا حتَّى برج الجرس، متفرغين لمَهمَّة صامتة وشاقّة، وعندما وصلنا إلى الجرس صفّرَ الأب بييترو وحرَّك ذارعيه كأنَّه يرفرف، والظلُّ الذي كان في السماء هبط إلى البرج وحطَّ على القفَّاز الذي يحمله الإيطالي في يده اليسرى، وفي تلك اللحظة، وبدون شرح، أدركت أنَّ الطائر داكن اللون الذي كان يحلّق فوق كنيسة «سانتا ماريا ديل دولور بيربيتوو» كان صقرًا، وأنَّ الأب بييترو قد أصبح خبيرًا في الصيد بالصقور، وأنَّ هذه هي الوسيلة التي يتوسّلها لاقتلاع الحمام من الكنيسة القديمة، وبعد ذلك نظرت، من هذا الارتفاع إلى السلالم التي تقود إلى باحة الكنيسة والميدان القرميدي ذي اللون الأرجواني بجانب الكنيسة، ومهما أمعنت

النظر لم أرَ حمامة واحدة. الأب بييترو، القنَّاص والقسّ، صحبني في الظهيرة إلى مكان آخر في بستويا. لم أرَ هناك مبانيَ كنسية ولا أثار دنيوية ولا أيَّ شيء يمكن حمايته من مرور الزمن. ذهبنا في شاحنة الكنيسة، كان الصقر في قفص. عندما وصلنا إلى وجهتنا أخرج الأب بييترو الصقر وأطلقه في السماء. رأيته يطير وينقضُّ على حمامة، ورأيت الحمامة ترتعد أثناء طيرانها. فُتِحَت نافذة في مبنى للخدمات الاجتماعية، وصرخت امرأة عجوز فينا وهدَّدتنا بقبضة يدها. ضحك الأب بييترو. رداءينا كانا يتمايلان مع الريح. أثناء عودتنا قال لي إنَّ الصقر يدعى «التركي». بعد ذلك أخذت القطار حتَّى تورين، حيث ذهبت إلى رؤية الأب أنجلو، من كنيسة «سان بابلو ديل سوكوررو»، ضليع أيضًا في شئون الطيور. صقرُه كان يُدعى «عطيل»، وكان مصدر رعب لكلِّ حمامات تورين، لم يكن الصقر الوحيد في المدينة، كما أسرّ لي الأب أنجلو، إذ كانت لديه أسبابٌ لها ما يبرِّرها للشكِّ في وجود صقر آخر في حيٍّ غيرِ محدَّد في تورين، ربَّما في المنطقة الجنوبية، وأنَّ «عطيل» رأى الصقر الآخر في رحلاته الجوية. كان الطائران الكاسران، كلاهما، يصطادان الحمام، ومبدئيًّا لم يكن هناك أسبابٌ للخوف المتبادل، لكنَّ الأب أنجلو كان يعتقد أنَّ يوم المواجهة بين الصقرين ليس ببعيد. في تورين أمضيتُ أيامًا أكثر من بستويا. بعد ذلك أقلَّني القطار الليلي المتجه إلى ستراسبورج. هناك كان الأب جوزيف يمتلك صقرًا يُدعى

«جينوفونتي». كان لون الطائر الكاسر أسودَ مائلًا إلى الزرقة، وأحيانًا كان الأبُ جوزيف يلقي القُدَّاس بينما الصقر واقف على أعلى نقطة في الأرغن، فوق أنبوب مذهّب، وأحيانًا عندما كنتُ أركع أثناء الاستماع لكلماتِ الربِّ كنتُ أشعر بنظرة الصقر، عينيه الثابتتين، على مؤخِّرة رأسي، فأشرد وأفكِّر في «بيرنانوس»[1] وفي «مورياك»[2]، اللذين كان الأب جوزيف يقرأهما باستمرار، وكنت أفكّر أيضًا في جراهام جرين، الذي كنت أنفرد بقراءته، أمَّا الأب جوزيف فلا، فالفرنسيُّون يقرأون للفرنسيين فقط، برغم أنَّنا تكلَّمنا ذات مرَّة عن جرين حتَّى وقت متأخِّر ولم نصل لنقطة اتفاق. كما كنَّا نتكلَّم عن (بورسون) القَسّ الذي أُستُشهد في المغرب، وكتب «فيلامين» كتابًا عن حياته ومسيرته الدينية، أعارني إيَّاه الأب جوزيف، وتكلّمنا أيضًا عن الأب بيير[3] الذي كان يُثير إعجاب الأب جوزيف يوم الأحد ويُثير ضيقَه يوم الاثنين. ثم رحلت عن ستراسبورج وذهبت إلى أفينيون، إلى

---

(1) Georges Bernanos (1888-1948).
روائي، وكاتب مسرحي فرنسي. له نزعة دينية، يركّز في كتابته على الصراع الخير والشر في نفس الإنسان.

(2) François Mauriac. (1885-1970)
كاتب فرنسي حاصل على جائزة نوبل، اشتُهر بكتابته الدينية.

(3) اسمُه الحقيقي هنري كروبي (1912-2007) ويُعرف بالأب بيير، كان يُطلق عليه أيضًا «ملاك الفقراء». قَسّ كاثوليكي شارك في المقاومة الفرنسية وعضو مؤسِّس لرابطة إيمايوس (حركة علمانية خيرية لمساعدة الفقراء والمستبعدين واللاجئين)، ومؤسّسة الأب بيير لإسكان الفقراء.

كنسية «نويسترا سنيوار ديل ميديوديا»، وكان كاهنُها الأبُ فابريس، وصقره كان يُدعى «اللعنة»، وكان مشهورًا في المنطقة بوحشيّته وعنفه. وأمضيتُ مع الأب فابريس أُمسِيَات لا تُنسى بينما كان «اللعنة» يطير ويقضي على أسراب، ليس من الحمام فقط، وإنَّما من الزرازير أيضًا، وكانت كثيرة العدد في أراضي بروفانس في تلك الأيّام البعيدة السعيدة. الأراضي التي جابها سورديل، سورديللو، أي سورديلّو؟ وكان «اللعنة» يطير ويختفي بين السحب القريبة، السحبِ التي تنزل على تلال أفينيون الملوَّثة فتتركها ناصعة. بينما أنا والأب فابريس نتكلَّم، يظهر «لعنة» فجأة مثل شعاع، أو مثل الصورة الذهنية لشعاع، منقضًّا على أسراب ضخمة من الزرازير تأتي من الغرب مثل حشود من الذباب، تصبغ السماء باللون الأسود في تحليقها غير المنتظم، وبعد دقائق قليلة يكون سرب الزرازير يقطر دمًا، يتشظَّى ويقطر دمًا، وحينئذٍ يصطبغ مساء ضواحي أفينيون باللون الأحمر القاني، مثل الأحمر الشفقي الذي يمكن رؤيته من نافذة طائرة، أو أحمر الشروق، عندما يستيقظ المرء بنعومة بسبب ضوضاء المحرِّكات التي تطنُّ في الأذن فيفتح الستارة الصغيرة في الطائرة ويرى في الأفق خيطًا أحمرَ مثل الشريان، شريان فخذ الكوكب، شريان أورطي الكوكب التي تتضخم شيئًا فشيئًا، شريان الدَّمِ، هذا هو ما رأيته في سماء أفينيون، الزرازير وطيرانها الدامي، حركات «اللعنة» مثل ريشة رسَّام تعبيري تجريدي. آه، السلام، تناغم

الطبيعة في أفينيون واضحٌ وملموسٌ بما لا يُقارن بأيِّ مكان آخر، وبعد ذلك يصفر الأب فابريس وننتظر لوقت غير محدّد، لا مقياس له إلّا نبض قلبَينا، حتَّى يحطَّ صقرُنا اللَّاهث على ذراعه. ثم أقلَّني القطار، وتركت أفينيون بحزن شديد وسافرت حتَّى الأراضي الإسبانية، وبالطبع كانت مدينة بامبلونا هي أوّل مكان أذهب إليه، حيث كان يتمُّ العناية بالكنائس بطرق أخرى لم تكن مهمَّةً لي، أو لم يكن يُعتنى بها على الإطلاق، لكن كان عليّ أن أزور الأخوة في (الأوبوس داي)، وهم كانوا سيقدِّمونني إلى مديري (الأوبوس داي)، وإلى مديري مدارس (الأوبوس داي) ومدير الجامعة الذي كان منتميًا إلى (الأوبوس داي) أيضًا، وكلُّهم أبدوا اهتمامًا بعملي كناقدٍ أدبي وعملي كشاعرٍ وعملي كمُعلِّم، وعرضوا عليَّ نشر كتاب، هكذا هم الإسبان، كرماء، وجادُّون أيضًا، فقد وقَّعت على العقد في اليوم التالي، بعد ذلك أعطوني خطابًا كان موجَّهًا لي، كتبه السيِّد بعر، يسألني فيه عن أحوالي في أوربَّا، عن الطقس والطعام، والآثار التاريخية، كان خطابًا مضحكًا، كأنَّه للتمويه على خطاب آخر، غير مقروء، أكثر جِدِّية، وهذا أثار فيَّ مخاوف عميقة برغم الجهل بما يقوله الخطاب المشفَّر وعدم التيقُّن تمامًا من وجود رسالة مشفّرة بين كلمات الخطاب المضحك. بعد ذلك غادرت بامبلونا، بعد أن تلقيتُ أحضانًا وتوصيّات وكلّ أنواع الوداع الحميمة، ووصلت إلى بورجوس حيث كان ينتظرني الأب أنطونيو، قسٌّ عجوز

يمتلك صقرًا يدعى رودريجو، ولم يكن يصطاد الحمام، من جانب لأنَّ سنَّ الأب أنطونيو لم يكن يسمح له بمرافقة صفره في رحلات الصيد، ومن جانب لأنَّ الحماس الأوَّلي للكاهن تبعته فترة من الشكوك حول أخلاقية القضاء على هذه الطيور بمثل هذه الطريقة القاسية، فقد كانت برغم فضلاتها من مخلوقات الربِّ. وهكذا عندما وصلت إلى بورجوس كان الصقر رودريجو يأكل لحمًا مفرومًا أو مقطَّعًا وأحشاء يشتريها الأب أنطونيو أو خادمته من السوق، كبدًا، قلبًا، أمعاءً، وقلّة النشاط تركته في حال يرثى لها، يشبه في تداعيه الحال البادي على الأب أنطونيو، الذي كانت وجنتاه ممصوصتين من الشكِّ والندم، بعد فوات الأوان، وهو أسوأ أنواع الندم، وعندما وصلت بورجوس كان الأب أنطونيو مستلقيًا على فراشه، على سرير قَسٍّ فقير، مغطًّى ببطانية خشنة في حجرة كبيرة، من الحجر، والصقر بغطاء واقٍ على رأسه ويرتعد من البرد في أحد الأركان، من دون أيٍّ ملمح من البهاء الذي رأيته في أراضي إيطاليا وفرنسا، صقر مسكين وكاهن مسكين كلاهما ينتظر النهاية، وعندما رآني الأب أنطونيو حاول النهوض معتمدًا على أحد كوعَيه، مثلما سأفعل بعد سنوات، بعد دهور، بعد دقيقتين أو ثلاث من ظهور الشابِّ الهَرِم، ورأيت كوع الأب أنطونيو وذراعه رفيعا مثل فخد دجاجة، وقال لي الأبُ أنطونيو إنَّه فكّر، فكَّرت، قال، ربَّما لم تكن فكرة الصقور جيّدة، لأنّه بالرغم من أنَّها تحمي الكنائس من التآكل وعلى المدى

البعيد من التدمير بسبب فضلات الحمام، لكن لا يجب أن ننسى أنَّ الحمام رمز أرضي للروح القدس، أليس كذلك؟ ويمكن للكنيسة الكاثوليكية أن تستغني عن الابن والأب، لكنّها لا يمكن أن تستغنيَ عن الروح القدس، الأهم بكثير ممّا يعتقد العامَّة، أكثر أهمِّية من الابن الذي مات على الصليب ومن الأب خالق النجوم والأرض وكلّ الكون، وفي تلك اللحظة لمست بأصابعي جبهة وصدغ قَسّ بورجوس وأدركت في الحال أنَّ درجة حرارته كانت بحدود الأربعين على الأقلِّ، وناديت على الخادمة وأرسلتها في طلب طبيب، وبينما كنت أنتظر مجيئه، انشغلت بمراقبة الصقر الذي يبدو أنَّه كان يموت من البرد على الحامل، ورأسه مغطّى، ولم يبدُ لي مناسبًا أن يكون على هذا الحال، ولهذا بعد أن ألحفت الأب أنطونيو ببطانية أخرى وجدتها في المسكن، بحثت عن القفّاز المعدني وأخذتُ الصقر واتَّجهت إلى البهو وتأمَّلت الليل البلوري البارد ونزعت عن الصقر غطاء رأسه وقلت له: طر يا رودريجو، وبدأ رودريجو التحليق بعد المرَّة الثالثة، ورأيته يرتفع بقوَّة متزايدة، أصدر جناحاه صوتًا كالمروحة المعدنية وبديا لي كبيرَين، وبعد ذلك هبَّت ريح كالإعصار، ومال الصقر في طيرانه العمودي وارتفع ردائي مثل عَلم في قبضة غاضبة، وأتذكَّر أنَّني في تلك اللحظة صرخت مرّة أخرى طِرْ يا رودريجو، وبعد ذلك سمعت رفرفات مجنونة مختلفة، وغطّت طيَّات الرداء عينيّ بينما كانت الريح تكنس الكنيسة ومحيطها، وعندما استطعت نزع

غطاء رأسي رأيت أجسادًا مشوّهة على الأرض، أجسادًا صغيرة دامية لحمامات كثيرة وضعها رودريجو تحت قدمَيَّ، أو حولي في دائرة لا تتجاوز العشرة أمتار، قبل أن يختفي، فالحقيقة أنَّ رودريجو اختفى تلك الليلة في سماء بورجوس، حيث قيل إن صقوراً أخرى تعيش على الطيور الصغيرة، وربَّما كان الذنب ذنبي، فقد كان يجب أن أظلَّ في بهو الكنيسة، وأناديَه، إذ ربّما قد يعود الطير الجارح، لكنَّ جرسًا صغيرًا كان يرنُّ من دون انقطاع في قلب الكنيسة وأدركتُ، عندما استطعت سماعَه في النهاية، أنَّ الطبيب والخادمة قد جاءا، وتركت مكاني وذهبت لأفتح، وعندما عدتُ للبهو لم يكن الصقر موجودًا. في تلك الليلة مات الأب أنطونيو وباركت روحه وتكفَّلت بكلِّ الأمور العملية حتَّى اليوم التالي عندما وصل قسٌّ آخر. القسُّ الجديد لم يلحظ اختفاء رودريجو. ربما الخادمة انتبهت، ونظرت إليَّ كأنَّها تقول إنَّ هذا لا يهمُّها. ربَّما تكون قد فكَّرت أنَّني أطلقتُ الصقر بعد موت الأب أنطونيو وربَّما تكون قد فكّرت أنَّني قتلت الصقر متَّبعًا تعليماتِ الأب أنطونيو. على أيٍّ حال لم تقل شيئًا. في اليوم التالي رحلتُ عن بورجوس وذهبت إلى مدريد حيث لم ينشغلوا بتدهور الكنائس، لكنَّني انشغلت فيها بمشكلات أخرى. بعد ذلك أقلَّني القطارُ وسافرت إلى نامور في بلجيكا، حيث كان الأب تشارلز، من كنيسة «نويسترا سنيورا دي لوس بوسكس»، يمتلك صقرًا اسمُه «روني»، وعقدت صداقة طيبة مع الأب

تشارلز، وكنت أخرج معه على الدرَّاجات للتجوُّل في الغابات المحيطة بالمدينة، درَّاجاتٍ لها سلال وكنّا نملؤها بأطعمة باردة ودائمًا زجاجة نبيذ، حتَّى إنَّني قمت بالاعتراف للأب تشارلز ذات مساءٍ على ضفّة نهرٍ، متفرِّعٍ من نهرٍ أكبرَ، بين العشب وأزهار الغابات بين شجر السنديان الكبير، لكنَّني لم أقل له شيئًا عن الأب أنطونيو ولا عن صقره رودريجو الذي فقدته للأبد في تلك الليلة الدامية في بورجوس. بعد ذلك أقلَّني القطار وودّعت الأب تشارلز الرائع واتَّجهتُ إلى سان كينتين في فرنسا، حيث كان ينتظرني الأب باول من كنيسة سان بيدرو وسان بابلو، التي كانت جوهرة قوطية. ومع الأبِ بول ومع صقره «حمى» حدث لنا أمرٌ طريف وغريب، إذ إنَّنا خرجنا ذات صباح لإخلاء السماء من الحمام ولم يكن هناك حمام، وهو ما ضايق مضيفي الذي كان شابًّا وفخورًا بحيوانه، الذي كان يعتبره الأفضل بين الجوارح، وكان ميدان كنيسة سان بيدرو وسان بابلو بالقرب من ميدان البلدية حيث سمعنا ضوضاء لم تعجب الأب باول. وهناك كنَّا أنا والأب باول و«حمى» منتظرين عندما رأينا فجأة حمامة تطير فوق الأسطح القرميدية التي تحيط بالميدان، وأطلق الأب بول صقره الذي لم يستغرق زمن صياح ديك في الوصول إلى الحمامة التي كانت قد أتت من ميدان البلدية ويبدو أنَّها كانت متَّجِهة إلى البرج الكبير للكنيسة الصغيرة الرائعة، وأسقط «حمى» الحمامة مقضيًّا عليها، وفي تلك اللحظة علت أصواتُ اعتراضٍ في ميدان

بلدية سان كنتين، أمَّا الأب باول وأنا، بدلًا من الهرب، فغادرنا ميدان الكنيسة وشددنا الرحال إلى ميدان البلدية. وهناك كانت الحمامة، بيضاء اللون، تقطر دمًا على أحجار الشارع، وكان هناك أناسٌ كثيرون حولها، من بينهم عمدةُ سان كينتين وعدد كبير من الرياضيّين، وفي حينها فقط أدركنا أنَّ الحمامة التي قضى عليها «حمى» كانت رمزًا لحدثٍ رياضيٍّ وأنَّ الرياضيِّين كانوا متضايقين ومكروبين، ومثلهم سيِّدات المجتمع في سان كينتين واللاتي كنَّ يرعين المسابقة، وكنَّ صاحبات فكرة بدء السباق بتحليق حمامة، كما كان الشيوعيُّون في سان كينتين متضايقين أيضًا، فقد قاموا بمساندة فكرة سيِّدات المجتمع في القرية، برغم أنَّ الحمامة الميتة التي كانت حيَّة وتطير ـ لم تكن حمامة الوئام للشيوعيين ولا حمامة السلام في المنافسة الرياضية وإنّما حمامة بيكاسو، طائر ثنائيّ المغزى. وبكلمات قليلة، كلّ القُوى الحية كانت تشعر بالضيق، عدا الأطفال الذين كانوا يبحثون بانبهار عن ظلّ «حمى» في السماء واقتربوا من الأب باول لكي يسألوه عن تفاصيلَ تبدو تقنية أو علمية حول طائره العجيب، والأب باول، بابتسامة على شفتيه طلب الصَّفح من الحضور، حرَّك ذراعيه كأنَّه يقول معذرة، كلّ الناس تخطئ، بعد ذلك تفرَّغ للردِّ على الصغار بإجابات مبالغ فيها أحيانًا، لكنَّها صحيحة دائمًا. بعد ذلك ذهبت إلى باريس، حيث أقمتُ مدَّة شهر تقريبًا منشغلًا بكتابة الشعر، التردُّد على المتاحف والمكتبات، وزيارة الكنائس التي كانت

تملأ عينيّ بالدموع، كانت رائعة الجمال، في لحظات فراغي كنت أكتب مُسوَّدة لتقريري حول الحفاظ على الآثار الوطنية، بتركيز خاصٍّ على استخدام الصقور، كنت أرسل مقالاتي الأدبية ويوميّاتي إلى تشيلي، كنت أقرأ الكتب التي يرسلونها من سانتياجو، كنت آكل وأتنزَّه. من حين إلى آخر، وبدون مناسبة، كان السيِّد بعر يرسل إليَّ خطابًا قصيرًا. كنت أذهب إلى سفارة تشيلي مرَّة كلَّ أسبوع، حيث كنت أقرأ صحف الوطن وأتكلَّم مع الملحق الثقافي، شخصٌ لطيفٌ، تشيليٌّ حتَّى النخاع، شديد الإيمان، قليل الثقافة، كان يتعلّم الفرنسية بحلِّ الكلمات المتقاطعة التي تُنشر في «لو فيجارو». بعد ذلك سافرت إلى ألمانيا وطفت بافاريا، زرت النمسا وسويسرا. بعد ذلك عدت إلى إسبانيا. طفت بالأندلس. لم يثر إعجابي كثيرا. عدت مرّة أخرى إلى نافارا. رائعة. تجوّلت في أراضي جليقلة. زرت أستورياس ومحافظات الباسك. أقلَّني قطارٌ متَّجِهٌ إلى إيطاليا. ذهبت إلى روما. ركعت أمام البابا. بكيت. رأيت أحلامًا مقلقة. رأيت نساءً يمزِّقنَ ملابسهنَّ. كنت أرى الأب أنطونيو، قَسَّ بورجوس، الذي فتح عينا قبل أن يموت وقال لي: هذا أمرٌ سيِّئٌ للغاية يا صديقي. كنت أرى سربًا من الصقور، آلاف الصقور التي تحلق على ارتفاع عالٍ فوق المحيط الأطلنطي، متَّجِهين إلى أمريكا الجنوبية. أحيانًا كانت الشمس تصبح سوداء في أحلامي. مرّات أخرى كان يظهر قَسٌّ ألماني، شديد البدانة، وكان يحكي

لي نكتة. كان يقول لي: يا أب لاكروا، سوف أحكي لك نكتة. كان البابا مع رجل لاهوت ألماني، يتحدَّثان بهدوء في إحدى غرف الفاتيكان. فجأة دخل عالما حفريّات فرنسيّان، شديدَي الغضب والعصبية، وقالا للبابا إنَّهما وصلا للتوّ من الأراضي المقدَّسة ويحملان له خبرين، أحدهما جيّد للغاية والآخر سيِّئ. رجاهما البابا أن يتحدَّثا مباشرة، ألا يتركاه على جمر. يقول الفرنسيّان بينما يقاطع أحدهما الآخر إنَّ الخبر الجيّد أنَّهما عثرا على اللّحد المقدَّس. يسأل البابا: اللحد المقدَّس؟ اللحد المقدس. من دون أدنى شكٍّ. يبكي البابا من التأثّر. وما هو الخبر السيِّئ؟ سأل بينما يجفِّف دموعه. إنّنا وجدنا جثّة المسيح في داخله. ويُغشى على البابا. ويتسابق الفرنسيان للتهوية عليه. عالِم اللاهوت الألماني، الوحيد الذي ظلَّ هادئا، يقول: آه، لكن هل هذا يعني أنَّ المسيح وُجِدَ بالفعل؟ سورديل، سورديّو، سورديو ذاك، المعلم سورديو. في أحد الأيّام قرَّرت أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى تشيلي. عدت بالطائرة. الوضع في الوطن لم يكن جيِّدًا. كنت أقول لنفسي، لا يجب أن نحلُم، وإنّما يجب أن نكون عاقلين. لا يجب أن يفقد الإنسان ثقته بنفسه بعد هزيمة، لكن يجب أن يكون وطنيًّا، كنت أقول لنفسي. في تشيلي لم تكن الأمور تسير بشكل جيِّد. بالنسبة لي كانت الأمور تسير بشكل جيد، أما بالنسبة للوطن فلم تكن الأمور تسير بشكل جيد. لستُ قوميًّا مُتطرِّفًا، مع هذا كنت أشعر بحبٍّ حقيقي لبلدي. تشيلي،

تشيلي. كيف أمكنك أن تتغيّري إلى هذا الحدّ؟ كنت أكلّمها أحيانًا، مطلًّا من نافذتي المفتوحة، ناظرًا إلى احتراق سانتياجو من بعيد. ماذا فعلوا بك؟ هل جُنَّ التشيليّون؟ على مَن يقع الذنب؟ وأحيانًا، بينما أسير في ردهات المدرسة أو في ردهات الجريدة، كنت أقول لها: إلى متى ستظلّين هكذا، يا تشيلي؟ هل ستصبحين شيئًا آخر؟ المسخ الذي لن يتعرّف عليه أحد؟ بعد ذلك جاءت الانتخابات وفاز أليندي . واقتربت من المرآة في حجرتي وأردتُ أن أصيغ السؤال المفصلي، الذي كنت أحتفظ به من أجل هذه اللحظة. ورفض السؤال أن يخرج من شفتَيّ الشاحبتين. لا يوجد مَن يستطيع تحمّل هذا. ليلة انتصار أليندي خرجت وذهبت مشيًا حتَّى بيت فارويل. فتح لي الباب بنفسه. كم كان عجوزًا. في ذلك الوقت لا بدَّ أنَّ فارويل كان في حوالَي الثمانين، أو ربَّما أكثر، ولم يعد يضع يده على خصري ولا على أردافي عندما نتقابل. أدخل يا سباستيان، قال لي. تبعته حتَّى الصالة. كان فارويل يقوم ببعض المكالمات الهاتفية. أوّل مَن هاتف كان نيرودا. لم يستطع الحديث معه. وبعد ذلك اتصل بـ«نيكانور بارّا». النتيجة نفسها. كنت قد تركت نفسي أسقط على مقعد وغطّيت وجهي بيدي. وظللت أسمع كيف يدير فارويل قرص التليفون بأرقام أربعة شعراء آخرين أو خمسة، من دون أي نتيجة. أخذنا نشرب. اقترحت عليه، إن كان هذا سيطمئنه، أن يقوم بمكالمة بعض الشعراء الكاثوليكيين الذين يعرفهم كلانا.

هؤلاء هم الأسوأ، لا بدَّ أنَّهم جميعًا في الشارع الآن يحتفلون بانتصار أليندي . بعد بضعة ساعات نام فارويل على أحد المقاعد. أردت أن أحمله إلى الفراش، لكنَّه كان ثقيلًا للغاية، فتركته هناك. عندما عدت إلى بيتي أخذت أقرأ الإغريقيين. فلتكن إرادة الربِّ، قلت لنفسي. سوف أعيد قراءة الإغريقيين. بدأت بهوميروس، حسب التقاليد، وتبعته بطاليس وكزينوفانس وألكمايون القروتوني وزينون الايلي (كم كان ممتعًا)، وبعد ذلك قتلوا جنرالًا من الجيش من المؤيّدين لأليندي وأعادت شيلي علاقاتها الدبلوماسية مع كوبا وسجَّل التعداد الوطني 8.884.768 نسمة، وفي التلفزيون بدأ بث مسلسل (الحقّ في أن أولد)، وقرأت ترتيوس الإسبرطي، وأرخيلوخوس من باروس وصولون الاثيني وايبوناكتي الأفيسي وتيسيا الصقلي وصافو وتيوجنيس من ميجارا وأناكريون من تيوس وبنداروس (أحد كُتّابي المفضلين)، وقامت الحكومة بتأميم النحاس وبعد ذلك النترات والحديد وحصل بابلو نيرودا على جائزة نوبل وحصل دياث كاسانويبا على الجائزة الوطنية للأدب وزار فيدل كاسترو البلاد واعتقد كثيرون أنَّه سيبقى ليعيش هنا للأبد، وقتلوا «بيريث زوجفيك» الوزير السابق عن حزب الديمقراطية المسيحية، ونشر لافوركادي روايته «الحمامة البيضاء»، وكتبت عنها نقدًا جيّدًا، قصيدة مدح تقريبًا، برغم أنّني في الحقيقة أعرف أنّها ليست سوى رواية تافهة لا أهمية لها، وتمّ تنظيم أوّل مسيرة بأواني المطبخ ضدَّ أليندي ،

وأنا كنت أقرأ إسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس، كلَّ المآسي، وقرأت ألكايوس الميتاني وهيسيود وهيرودوت (الذي كان من العماليق وليس من البشر)، وفي تشليي حدث شِحٌّ وتضخّم وسوق سوداء وطوابير طويلة للحصول على الطعام و(الإصلاح الزراعي) نزع ملكية ضيعة فارويل كآخرين وتمَّ إنشاء المجلس الوطني للمرأة وقام أليندي بزيارة المكسيك والجمعية العامّة للأمم المتّحدة في نيويورك ووقعت اعتداءات إرهابية، وأنا قرأت توثيديدس، الحروب الطويلة التي كتب عنها توثيديدس، والأنهار والوديان، والرياح والهضاب الحاضرة في الصفحات التي أصفر لونها مع الزمن، ورجال توثيديدس، الرجال المسلحين والرجال العُزَّل، الذين كان يجمعون العنب وينظرون إلى الأفق البعيد من فوق الجبل، ذلك الأفق حيث كنت واحدًا من ملايين البشر، في انتظار الميلاد، الأفق الذي نظر له توثيديدس وكنت أرتعد فيه، وأيضًا أعدت قراءة ديموستيني وميناندرو وأرسطو وأفلاطون (الذي كانت قراءته مفيدة دائمًا)، ووقعت إضرابات وحاول كولونيل من سلاح المدرعات القيام بانقلاب، ومات مصوِّرٌ سينمائي مسجّلًا موته وبعد ذلك اغتالوا قائد القوات البحرية في نظام أليندي ، وحدثت اضطرابات، تبادل للسباب، التشيليون أخذوا يهرطقون، رسموا على الحوائط، وبعد ذلك اصطفّ نصف مليون شخص تقريبا في مسيرة كبيرة لدعم أليندي ، وبغد ذلك وقع الانقلاب، العصيان، الانقلاب

العسكري، وقصفوا قصر لامونيدا، وعندما انتهى القصف، انتحر الرئيس وانتهى كلّ شيء. في تلك اللحظة توقّفت، بإصبعي على الصفحة التي كنت أقرأها، وفكّرت: يا لَلهدوء. وقفت ونظرت من النافذة: يا لَلصمت. كانت السماء زرقاء، زرقة عميقة وصافية، مزدانة هنا وهناك ببعض السحب. من بعيد رأيت طائرة هليوكوبتر. تركت النافذة مفتوحة وركعت وصلّيت، من أجل تشيلي، من أجل كلّ التشيليّين، من أجل الأموات والأحياء. بعد ذلك كلمت فارويل بالتليفون؟ ما هو شعورك؟ سألته. شديد السعادة، أجابني. الأيّام التالية كانت غريبة، كأنّنا قد استيقظنا فجأة من حُلم إلى الواقع، برغم هذا في بعض الأحيان كان الشعور هو العكس تمامًا، كأنّنا جميعًا نحلُم. وحياتنا اليومية تسير وفق هذه المعايير غير الطبيعية: في الأحلام كلّ شيء قابل للحدوث، والإنسان يتقبّل كلَّ ما يحدث. الحركة مختلفة. نتحرّك مثل الغزلان، أو مثلما يحلم النمر بالغزلان. كنَّا نتحرّك كأنَّنا داخل لوحة لفاسرلي. نتحرّك كأنَّنا بلا ظلٍّ، وكأنَّ هذه الحقيقة المفزعة لا تهمُّنا. تكلّمنا. أكلنا. لكن في الواقع كنّا نحاول ألَّا ندركَ أنَّنا نتحدَّث، ألَّا ندركَ أنَّنا نأكل. ذات ليلة عرفت أنّ نيرودا قد مات. كلمت فارويل بالتليفون. لقد مات بابلو، قلت له. بالسرطان، بالسرطان، قال فارويل. نعم، بالسرطان، قلت. هل سنذهب لتشييعه؟ أنا سأذهب، قال فارويل. وأنا سأذهب معك، قلت له. عندما وضعت سمّاعة التليفون بدا لي أنَّه حوار في حُلم. في

اليوم التالي ذهبنا إلى المقابر. كان فارويل شديد الأناقة. كان يبدو كأحد البحَّارة الأشباح، لكنَّه كان أنيقًا للغاية. سوف يعيدون لي عزبتي، همس في أذني. المشيّعون كانوا كثيرين، وأثناء سيرنا انضمَّ أناس أكثر. يا لَملاحة هؤلاء الغلمان، قال فارويل. تحكّم في نفسك، قلت له. نظرت في وجهه: كان فارويل يغمز بعينه لبعض الغرباء. كانوا شبَّانًا، ويبدو أنَّهم في مزاج سيِّئ، لكنّهم بدوا لي خارجين من حُلم حيث المزاج السيِّئ والمزاج الرائق ليسوا إلَّا حوادث ميتافيزيقية. سمعت شخصاً ما خلفنا، يتعرف على فارويل ويقول إنَّه فارويل، الناقد. كانت كلمات تخرج من حلم وتدخل في حُلم آخر. بعد ذلك أخذ شخص في الصراخ. شخص هيستيري. هيستيريون آخرون ردُّدوا الهتاف. ما هذه الوضاعة؟ سأل فارويل. بعض الحقراء، رددت عليه، لا تهتمّ، إنّنا على وشك الوصول إلى المقابر. وأين بابلو؟ سأل فارويل. هناك، في المقدّمة، في التابوت، قلت له. لا تكن أحمقَ، قال فارويل، لم أصبح عجوزًا خَرِفًا بعد. العفو، قلت. لقد عفوت عنك، قال فارويل. من المؤلم أنَّ الجنازات لم تعد كما كانت من قبل، قال فارويل. بالفعل، قلت. برثاء وكلمات وداع من كلِّ نوع، قال فارويل. على الطريقة الفرنسية، قلت أنا. كنت لأكتب رثاءً رائعًا في بابلو، قال فارويل، وأخذ في البكاء. لا بدَّ أنّنا نحلم، فكّرت. عندما غادرنا المقبرة، بذراعين متشابكين، رأيت شخصًا ينام مستندًا على قبر. سَرَت رعشة في عمودي الفقري. الأيّام

التالية كانت هادئة إلى حدٍّ كبير، وكنتُ متعبًا من قراءة الإغريق. وهكذا عدت لمتابعة الأدب التشيلي. حاولت أن أكتب قصيدة. في البداية لم يكن يصدر عنِّي إلّا شعرٌ رديءٌ. بعد هذا لم أعرف ما حدث لي. بعد أن كان ملائكيًا، أصبح شعري شيطانيًّا. في مساءات كثيرة كنت على وشك عرض أشعاري على الكاهن الذي أعترف له، لكنّني لم أفعل. كنت أكتب عن نساء أقوم بتعذيبهنَّ من دون شفقة، كنت أكتب عن المثليّين، عن أطفال تائهين في محطّات قطار مهجورة. في كلمة واحدة، كانت أشعاري دائمًا تنتمي لأبولو أمَّا ما يصدر عني الآن، فقد كان على نحوٍ ما ديونيسوسيًّا، وليكن هذا وصفًا مؤقّتًا. لكن في الحقيقة لم يكن شعرًا ديونيسوسيًّا. كما لم يكن شيطانيًّا. كان شعرًا مسعورًا. ماذا فعلت لي تلك النساء المسكينات اللاتي تظهرن في أشعاري. هل خدعتني إحداهنَّ؟ ماذا فعل لي هؤلاء المثليّون المساكين؟ لا شيء. لا شيء. لا النساء ولا الشواذّ. وبالقطع، يا إلهي، ولا الأطفال. لماذا إذن يظهر هؤلاء الأطفال التعساء محبوسين داخل تلك الأماكن العفنة؟ هل كنتُ أنا نفسي أحدَ هؤلاء الأطفال؟ هل كانوا الأطفال الذين لن أنجبهم؟ هل يتعلّق الأمر بالأبناء التائهين لأشخاص آخرين تائهين لم أعرفهم على الإطلاق؟ لكن، لماذا إذن كلُّ هذا الغضب؟ حياتي اليومية، برغم هذا، كانت شديدة الهدوء. كنت أتحدّث بصوت خفيض، لا أنفعل أبدًا، كنت منضبط المواعيد ومنظَّمًا. كلَّ ليلة كنت أصلّي وأعانق النعاس

من دون مشاكل. أحيانًا كانت تأتيني كوابيس، لكن في ذلك الوقت، بقدر أكبر أو أصغر، كان كلّ العالم يعاني من كابوس من وقت لآخر. في الصباح، برغم كلّ شيء كنت أستيقظ مستريحًا، بروح مستعدّة لمواجهة مشاغل اليوم. ذات صباح، أيضًا، قالوا لي إنَّ لدي زائرَين ينتظران في الصالة. اغتسلت ونزلت. رأيت السيِّد بعر جالسًا على كرسيٍّ خشبيٍّ لصق الحائط. السيِّد هرك كان واقفًا، يداه معقودتان خلف ظهره، يفحص لوحةً لرسّام يصف نفسه بالتعبيري (في الحقيقة كان الأمر يتعلَّق برسّام انطباعي). عندما رأياني ابتسما الابتسامة الموجّهة لصديق قديم. دعوتهما إلى الإفطار. والمدهش أنّهما قالا إنّهما قد أفطرا منذ فترة، برغم أنَّ ساعة الحائط لم تكن تشير إلّا لدقائق بعد الثامنة. قبلا تناول الشاي معي، فقط لمرافقتي. إفطاري لا يتجاوز هذا، شاي سادة، وبعض شرائح الخبز المحمَّص مع الزبد والمربى، وعصير برتقال. إفطار متوازن، قال السيِّد بعر. السيِّد هرك لم يقل شيئًا. الخادمة وضعت الإفطار، بناء على رغبتي، في شرفة البيت، المطّلة على الحديقة والأشجار التي كانت تحجب جزئيًّا سور المدرسة المجاور. نحمل عرضًا شديد الحساسية، قال السيِّد بعر. أحنيت رأسي تفهُّما ولم أقل شيئًا. السيِّد هرك كان قد أخذ إحدى شرائح الخبز المُحمَّص من أمامي وكان يضع عليها زبدًا. أمرٌ يتطلّب كتمانًا شديدًا، قال السيِّد بعر، بشكل خاص الآن، في هذه الظروف. قلت نعم، بالطبع، أفهم هذا. السيِّد هرك قضم

شريحة الخبز ونظر إلى أشجار الصنوبر الثلاث الضخمة التي تنهض مستقيمة في الحوش وكانت فخر المدرسة. أنت تعرف، يا أب أوروتيا، طبيعتنا؛ نحن التشيليين مثرثرون، من دون سوء نيّة، فليكن هذا واضحًا. لكن كثيرو الثرثرة. لم أقل شيئًا. السيِّد هرك، الذي كان قد أكل شريحة الخبز في ثلاث قضمات، بدأ يضع زبدًا على شريحة أخرى. ماذا أريد أن أقول بهذا؟ تساءل السيِّد بعر بشكل خطابي. إن الأمر الذي جاء بنا إلى هنا يتطلب كتمانا مطلقا. قلت نعم، إنني أفهم هذا. السيِّد هرك وضع المزيد من الشاي واستدعى الخادمة بطرقعة من الإبهام والوسطى لكي تحضر له القليلَ من اللبن. ما هو الذي تفهمه؟ سأل السيِّد بعر بابتسامة صريحة ودودة. إنّكما تطلبان منِّي كتمانًا شديدًا، قلت. أكثر من هذا، قال السيِّد بعر، أكثر بكثير. كتمانا أكثر من مطلق، سرية وكتماناً مطلقان بشكل غير عادي. كنت أودّ التصحيح له، لكنّني لم أفعل، لأنّني كنت أرغب في معرفة ما يريدان منّي. هل تعرف شيئًا عن الماركسية؟ سأل السيِّد هرك بعد أن نظّف شفتيه بفوطة. بعض الشيء، نعم، لكن لأسباب ثقافية فقط لا غير، قلت. أريد أن أقول إنّه لا يوجد شخص أكثر ابتعادًا عن هذه العقيدة أكثر منّي، هذا يستطيع أيّ شخص أن يقوله. لكن هل تعرف أم لا؟ اللازم فقط، قلت بعصبية متزايدة. هل توجد كتب عن الماركسية في مكتبتك؟ سأل السيِّد هرك. يا إلهي، ليست مكتبتي، إنّما مكتبة الجمعية، أعتقد أنّه يوجد بعضها، لكن من

أجل الاطّلاع، فقط كمرجع، لتدعيم عمل فلسفي يهدف إلى رفض الماركسية تحديدًا. لكن أنت يا أب أوروتيا، تمتلك مكتبتك، مثلما يقال مكتبتك الشخصية الخاصّة، بعض الكتب هنا، في المدرسة، وأخرى في بيتك، في بيت والدتك، هل أنا مخطئ؟ لا، لست مخطئًا، غمغمت. وفي مكتبتك الخاصّة، هل يوجد كتب عن الماركسية أم لا؟ سأل السيِّد هرك. من فضلك، أجب بنعم أو لا، توسّل إليّ السيِّد بعر. نعم، قلت. وعند الحاجة، هل يمكن التأكيد على أنّك تعرف القليل، أو أكثر من القليل حول الماركسية؟ سأل السيِّد هرك بينما ينشب عيناه المتفحِّصتان في عيني. نظرت إلى السيِّد بعر بحثًا عن مساعدة. وهذا أشار لي بعينه إشارة لم أفهمها: قد تكون إشارة خضوع، أو إشارة تواطؤ. لا أعرف ماذا أقول، قلت. قل أيّ شيء، قال السيِّد بعر. أنتما تعرفانني، أنا لستُ ماركسيًّا، قلت. لكن، هل تعرف أم لا تعرف، فلنقل، أسس الماركسية؟ قال السيِّد هرك. هذا يعرفه أي شخص، قلت. أي أن تعلُّم الماركسية ليس شديد الصعوبة، قال السيِّد هرك. لا، ليس شديد الصعوبة، قلت مرتعشًا من شعري إلى أخمص قدمي، ومجرِّبًا الشعور بأنّني أحلم كما لم يحدث من قبل. ربّت السيِّد بعر على ركبتي. اللفتة كانت ودودة، لكنّني انتفضت قافزًا تقريبًا. إن لم يكن من الصعب تعلّمها، فلن يكون تعليمها صعبًا، قال السيِّد هرك. التزمت الصمت حتَّى أدركت أنَّهما ينتظران كلمتي. لا، قلت، لا يجب أن يكون تعليمها صعبًا.

وأضفت، لكنّني لم أقم بتعليمها من قبل. الآن لديك الفرصة، قال السيِّد هرك. إنّها خدمة للوطن، قال السيِّد بعر. خدمة سيتمّ القيام بها في الطي والكتمان، بعيدًا عن ألق الأوسمة، أضاف. بكلمات صريحة، خدمة يجب القيام بها بفم مغلق، قال السيِّد كهر. من دون كلام، قال السيِّد بعر. شفاه مصمتة، قال السيِّد هرك. صامت مثل القبر، قال السيِّد بعر. لا للتفاخر بهذا أو ذاك في كلّ مكان، أنت تفهمني، نموذج للكتمان، قال السيِّد هرك. وما ماهية هذا العمل شديد الحساسية؟ سألت. في إعطاء بعض الدروس عن الماركسية، القليلة، الكافية لتكوين فكرة، لبعض السادة الذين ندين لهم كثيرًا كلّنا نحن التشيليين، قال السيِّد بعر بينما يقترب برأسه من رأسي ومطلقًا على أنفي رائحة بالوعة. لم أستطع تفادي تقطيب حاجبَيّ. إيماءة التقزّز جعلت السيِّد بعر يبتسم. لا تُتعب نفسَك، قال لي، لن تخمّن أبدًا بمَن يتعلّق الأمر. وإن قبلت، متى تبدأ الدروس؟ لأنّني في الحقيقة لديّ الكثير من العمل المتأخر، قلت. لا تتصنّع الأهمية معنا، قال السيِّد هرك، هذا عمل لا يمكن لأيِّ شخص أي يرفضه. لا يريد أيّ شخص أن يرفضه، قال السيِّد بعر بلهجة متصالحة. قدرت أنَّ الخطر قد زال، وأنّه وقت إظهار الشدّة. من هم تلاميذي؟ سألت. الجنرال بينوشيه، قال السيِّد هرك. تجرّعت الهواء. ومن أيضًا؟ الجنرال لياه، الأدميرال ميرينو والجنرال مندوثا، من غيرهم؟ قال السيِّد بعر مخفضًا صوته. يجب أن أجهّز نفسي، قلت، هذا ليس أمرًا

يؤخذ بخفّة. الدروس يجب أن تبدأ خلال أسبوع، هل يبدو لك وقتًا كافيًا؟ قلت نعم، برغم أنَّ الأفضل أن يكونا أسبوعين، لكن يمكنني ترتيب أموري في أسبوع. بعد ذلك تحدَّث السيِّد بعر عن أتعابي. إنَّها خدمة للوطن، قال، لكن المرء يجب أن يبحث عن رزقه. وافقت على رأيه في الأرجح. لا أتذكّر عمّا تحدَّثنا بعد ذلك. مرّ الأسبوع مغلَّفًا بجو الحُلم نفسه مثل الأسابيع السابقة. ذات مساء، عندما خرجت من مكاتب الجريدة، كانت تنتظرني سيّارة. ذهبنا إلى المدرسة لكي آخذ أوراقي وبعد ذلك اختفت السيارة في ليل سانتياجو. إلى جانبي، في المقعد الخلفي، كان يجلس كولونيل، الكولونيل بيريث لاروك، الذي كان مكلّفا بتسليمي مظروفًا لم أرغب في فتحه وقام بالإلحاح على ما أوصاني به السيِّدان بعر وهرك: السرية المطلقة في كلٍّ ما يتعلّق بعملي الجديد. أكّدت له أنّه يمكنه الاطمئنان لهذا. إذن لن يتمّ الكلام مجدّدًا في هذا الموضوع ولنستمتع بالرحلة، قال السيِّد بيريث لاروك، بينما كان يعرض عليّ كأس ويسكي فرفضته. هل لأنك ترتدي الآن زيَّ الكاهن؟ سأل. في تلك اللحظة فقط انتبهت إلى أنني عندما وصلت إلى المدرسة غيّرت البذلة التي ذهبت بها إلى الجريدة بزيٍّ الكاهن. نفيت بإشارة من رأسي. قال بيريث لاروك إنّه يعرف العديد من القساوسة يحتملون شرب الكحوليّات... قلت له إنّه يبدو لي غير محتمل أن يوجد أحد في تشيلي، قسّ أو غيره، يحتمل الشراب. بالعكس نحن هنا لا نعرف

كيف نشرب. وكما كنت أتوقّع، لم يكن بيريث لاروك متّفقًا معي. بينما كنت أسمعه من دون إنصات، أخذت أفكّر في الأسباب التي جعلتني أغيّر ملابسي. هل كنت أرغب أن أبدوَ بزيي الرسمي أيضًا أمام تلاميذي المهمِّين؟ هل كنت أخاف من شيء وكان الرّداء الكهنوتي هو درعي أمام خطر حقيقي لكن غير ملموس؟ أردت فتح الستائر التي تغطّي نوافذ السيارة ولم أستطع. قضيب معدني كان يمنع جرّها. إنّه إجراء أمني، قال بيريث لاروك، الذي لم يتوقّف عن ذكر أنواع نبيذ تشيلية، وسكارى تشيليين بلا نيّة لترك الشراب. كأنّه، من دون أن يدري ورغمًا عنه، يُلقي قصيدة مجنونة لبابلو دي روكها. بعد ذلك دخلت السيّارة في حديقة وتوقفت أمام مبنًى فيه ضوء واحد أمام الباب الرئيسي. تبعت بيريث لاروك. وأدرك هذا أنّني أتلفّت بحثًا عن جنود الحراسة، وشرح لي أنّ الحراسة الجيّدة هي التي لا تُرَى. لكن هل يوجد حرس؟ سألت. بالطبع، وكلّهم بالإصبع على الزناد. يسعدني أن أعرف هذا، قلت. دخَلنا في صالة كان لونُ حوائطها وأثاثها أبيض مبهرًا. اجلس، قال بيريث لاروك. ماذا تريد أن تشرب؟ طلبت شايًا. شاي، عظيم، قال بيريث لا روك، وخرج من الغرفة. بقيت بمفردي، واقفًا. كنت واثقًا أنّهم يقومون بتصويري. مرآتين، إطارهما خشبي مذهب، يبدوان مثاليّين لهذا الغرض. سمعت أصواتًا بعيدة، أناس تتناقش أو تعلّق على نكتة. بعد ذلك، الصمت من جديد. سمعت وقع أقدام

وبابًا يُفتح: خادم يرتدي ملابس بيضاء، يحمل صينية فضّية، صبّ لي فنجانا من الشاي. شكرته. غمغم بشيء لم أفهمه واختفى. بينما كنت أضع السكر في الشاي رأيت وجهي منعكسًا على السطح. قلت لنفسي: مَن رآك يا سباستيان، ومن يراك الآن؟ شعرت برغبة في قذف الفنجان على الحوائط الناصعة. شعرت برغبة في الجلوس بالفنجان بين ركبتي والبكاء، شعرت برغبة في التصاغر والغوص في المشروب الدافئ والعوم حتَّى القاع، حيث تستقرُّ حبّات السكر مثل قطع كبيرة من الماس. ظللت متصلّبًا. أظهرت الملل على وجهي. قلّبت الفنجان وتذوّقت الشاي. جيد. شاي جيّد. مفيد للأعصاب. بعد ذلك سمعت وقع خطوات في الردهة، ليست الردهة التي مررت بها وإنّما ردهة أخرى تفتح على باب في مواجهتي. فُتح الباب ودخل جنود المراسلة أو المساعدين، كلّهم بالزيِّ العسكري، ثم مجموعة من المساعدين أو الضبّاط الشبّان، ثم دخل مجلس الحكم بالكامل. وقفت. بطرف عيني رأيتني في مرآة. كانت الأزياء العسكرية تلمع مثل بطاقات التهنئة الملوّنة، كأنّها غابة متحرِّكة. ردائي الأسود، الواسع، كان يبدو أنّه يمتص بلحظة كلَّ أطياف الألوان. في تلك الليلة، الأولى، تحدّثنا عن ماركس وإنجلز. عن طفولة ماركس وإنجلز. بعد ذلك علّقنا على (مانيفستو)، الحزب الشيوعي و(رسالة اللجنة المركزية إلى عصبة الشيوعيين)، ككتب للمطالعة تركت لهم (المانيفستو) و(المبادئ الأساسية

للمادية التاريخية)، لمواطنتنا مارتا هارنيكر[1]. في الدرس الثاني، بعد أسبوع، تحدّثنا عن (صراع الطبقات في فرنسا من 1848 حتًّى 1850) وعن (الثامن عشر من برومير ـ لويس بونابرت)، وسألني الأدميرال ميرينو إن كنت أعرف مارتا هارنكير معرفة شخصية، وهل كانت هذه هي أفكارها. أجبته أنّني لا أعرفها شخصيّا، أنّها كانت تلميذة لـ«ألتوسير» (كنت أجهل من هو ألتوسير، وقد قلت هذا)، وإنّها درست في فرنسا، مثل الكثير من التشيليين. هل هي فتاة جميلة؟ أعتقد هـذا، قلت. في الـدرس الثالث عدنا لـ(المانيفستو). الجنرال لياه كان يرى أنّه نصٌّ بدائي من دون تنقيح. لم يُفصح أكثر من هذا. فكرت أنه قد يكون يسخر مني، لكن سرعان ما اكتشفت أنه جادّ. يجب أن أفكر في هذا، قلت لنفسي. الجنرال بينوشيه كان يبدو متعبا للغاية. كان يرتدي زيًّا عسكريا، على عكس المرَّتين السابقتين. أمضى الدرس كله مستلقيا على كرسي، يكتب بعض الملاحظات من آن لأخر، من دون أن يخلع النظارة السوداء. أعتقد أنه نام خلال بضعة دقائق، قابضا على قلمه بقوة. في الدرس الرابع لم يحضر سوى الجنرال بينوشيه والجنرال مندوثا. أمام ترددي أمرني الجنرال بينوشيه أن نواصل كأن الآخرَيْن موجودان، وبشكل ما كان هذا هو الوضع

---

(1) مارتا هارنيكر (1937) عالمة اجتماع وناشطة سياسية تشيلية. الكتاب المذكور يعتبر مرجعًا رئيسًا للحركات والحكومات الشيوعية والاشتراكية في أمريكا اللاتينية في عقد السبعينيات.

حقيقة، فمن بين باقي الحضور تعرفت على مقدّم في البحرية وجنرال في القوات الجوية. حدثتهم عن (رأس المال)، (كنت أحمل ملخصا أعددته في ثلاث صفحات) وعن (الحرب الأهلية في فرنسا). الجنرال مندوثا لم يوجّه أيَّ أسئلة طوال الدرس، مكتفيًا بكتابة الملاحظات. على المكتب كانت توجد نسخ عديدة من (المبادئ الأساسية للمادية التاريخية)، وعندما انتهى الدرس قال الجنرال بينوشيه للمساعدين أن يأخذ كلُّ واحد نسخة ويحملها. وغمز لي بعينه وودّعني بضغطة على يدي. في تلك اللحظة كان ودودًا كما لم يكن في أيّ وقت آخر. في الدرس الخامس تحدّثت عن (الأجر)، (الأسعار) و(الربح) وعدت إلى المانيفستو. بعد ساعة كان الجنرال مندوثا يغطّ في نوم عميق. لا تهتمّ، قال الجنرال بينوتشيه، تعال معي. تبعته حتّى باب الشرفة الزجاجي الكبير الذي يُشرف على الحديقة الخلفية للبيت. القمر المكتمل كان منيرًا على سطح أملسَ لمسبح. فتح النافذة. خلفنا سمعت أصوات الجنرالات المكتومة تتكلّم عن مارتا هارنيكر. من بين أُصُص الزهور كانت تنبعث رائحة رائعة منتشرة في كل الحديقة. غنى طائر، وفي الحال، من نفس الحديقة أو من حديقة مجاورة، طائر آخر من النوع نفسه ردّ عليه، وبعد ذلك سمعت رفرفةً كأنّها تخدش الليل، وبعد ذلك عاد الصمت العميق كاملًا. نتمشّى، قال الجنرال. وكأنّه ساحر، ما إن فُتح الباب الزجاجي ودخلنا تلك الحديقة المسحورة، حتى أنيرت كلّ أضوائها،

أضواء منثورة هنا وهناك بذوق رفيع. في تلك اللحظة تحدّثت عن (أصل العائلة، والملكية الخاصّة والدولة) الذي كتبه إنجلز بمفرده، ومع كلّ شرح من جانبي كان الجنرال يحني رأسه موافقًا، ومن حين إلى آخر كان يوجه أسئلة ذات صلة، وأحيانًا كان كلانا يصمت وننظر إلى القمر الشارد بمفرده في الفضاء اللانهائي. ربّما كان ذلك الخاطر هو ما أمدّني بالجرأة لكي أسأله إن كان يعرف ليوباردي. قال لا. وسأل من يكون. توقّفنا. كان باقي الجنرالات يتأمّلون الليل بالقرب من الباب الزجاجي. شاعر إيطالي من القرن التاسع عشر، قلت له. هذا القمر، قلت له، إن سمح لي سيّدي الجنرال لجرأتي، يجعلني أتذكّر قصيدتين له. (اللانهائي) و(الغناء الليلي لراعٍ تائهٍ من آسيا). الجنرال بينوتشيه لم يبدِ أيَّ اهتمام. ألقيت بينماً أسير بجانبه أشعار (اللانهائي) التي كنتُ أحفظها. شعر جميل، قال. في الدرس السادس، حضر الجميع مرّة أخرى: الجنرال لياه ترك عندي انطباعًا بأنّه تلميذ نابه، الأدميرال ميرينو، قبل أيّ اعتبار كان شخصًا لطيفًا، حديثه شائقٌ، الجنرال مندوثا، كما هي عادته، ظلَّ صامتًا وانشغل بكتابة الملاحظات. تحدّثنا عن مارتا هارنيكر. الجنرال لياه قال إنّ السيِّدة المذكورة على علاقة صداقة حميمة باثنين من الكوبيين. الأدميرال أكَّد المعلومة. هل هذا ممكن؟ سأل الجنرال بينوتشيه. هل يمكن أن يكون هذا ممكنًا؟ هل نتحدَّث عن امرأة أم عن كلبة؟ هذه المعلومات صحيحة؟ صحيحة، قال الجنرال لياه.

وخطر على بالي قصيدةٌ حول امرأة ضائعة، قمت بصياغة أبياتها الأولى والفكرة الأساسية في تلك الليلة، بينما كنت أتحدّث عن (المبادئ الأساسية للمادّية التاريخية)، وعدت لتوضيح بعض نقاط المانيفستو التي لم تكن قد فُهمت بشكل كامل. في الدرس السابع تحدّثت عن لينين وتروتسكي وستالين والاتجاهات المختلفة والمتضاربة للماركسية في العالم. تحدّثت عن ماو، عن تيتو، عن فيدل كاسترو. كلّهم (برغم أنّ الجنرال مندوثا تغيّب عن الدرس السابع) كانوا قد قرأوا أو يقرأون (المبادئ الأساسية للمادّية التاريخية) وعندما قارب الدرس على الانتهاء عدنا للحديث عن مارتا هارنيكر. وأيضًا أتذكّر أنّنا تحدّثنا عن مواهب ماو كرجل عسكري. قال الجنرال بينوشيه إنّ الذي كان يمتلك مواهب كرجل عسكري لم يكن ماو وإنّما صيني آخر، ذكره باسمه وألقابه العصيّة على النطق، وبالطبع لم أعقِّب. قال الجنرال لياه إنّ من المتحمل أن تكون مارتا هارنيكر تعمل مع المخابرات الكوبية. هل هذه المعلومات صحيحة؟ صحيحة. في الدرس الثامن عدت للحديث عن لينين ودرسنا (ما العمل؟)، وبعد ذلك استعرضنا (الكتاب الأحمر) لماو (بينوشيه كان يراه كتابًا عاديًّا، شديد البساطة)، وبعد ذلك عدنا للحديث عن (المبادئ الأساسية للمادية التاريخية)، لمارتا هارنيكر. خلال الدرس التاسع وجّهت لهم أسئلة متعلّقة بهذا الكتاب. الإجابات كانت مرضية بشكل عام. الدرس العاشر كان آخر درس. وحضره الجنرال بينوشيه

فقط. لم نتحدّث عن السياسة، وإنّما تحدّثنا عن الدين. عندما كان يودّعني أعطاني هدية باسمه واسم باقي أعضاء المجلس. لا أعرف لماذا كنت أعتقد أنّه سيكون وداعًا حارًا. لم يكن. بشكل ما كان وداعًا باردًا، رسميًّا، محكومًا بمقام رجل الدولة. سألته إن كانت الدروس مفيدة. بالطبع، قال الجنرال. سألته إن كنت على المستوى الذي كان ينتظر منّي؟ فليرتاح بالك، أكّد لي، عملك كان ممتازًا. رافقني الكولونيل بيريث لاروك حتَّى بيتي. عندما وصلت إلى بيتي، في الثانية صباحًا، بعد أن عبرت شوارع سانتياجو الخالية، الفراغات الهندسية لحظر التجوّل، لم أستطع النوم كما لم أعرف ماذا أفعل. أخذت أدور في الغرفة بينما عاصفة متصاعدة من الوجوه والأصوات كانت تضرب عقلي. عشرة دروس، كنت أقول لنفسي. في الحقيقة كانت تسعة فقط. تسعة دروس، تسع حصص. مراجع قليلة. هل قمت بعمل جيّد؟ هل تعلّموا شيئًا؟ هل علَّمت شيئا؟ هل أدّيت دوري؟ هل فعلت ما يجب أن أفعل؟ هل الماركسية تيار إنساني؟ هل هي نظرية شيطانية؟ إن حكيت لأصدقائي الكتّاب عمّا فعلت، هل سيوافقون عليه؟ هل سيعلن بعضهم عن رفضهم المطلق لما فعلت؟ هل سيتفهَّم بعضهم ويسامحونني؟ هل يعرف أي إنسان، دائمًا، ما الصواب وما الخطأ؟ في إحدى لحظات حُلم اليقظة رحت أبكي بحرارة، ممدّدا على الفراش، ملقيا باللوم في تعاستي (الثقافية) على السيِّدين بعر وهرك، اللذين أدخلاني في هذا الموضوع. بعد

ذلك، من دون أن أنتبه، سقطت نائمًا. في ذلك الأسبوع أكلت مع فارويل. لم أستطع تحمِّل وخز ضميري أكثر من هذا، وقد يكون مناسبًا أكثر لو قلت الحركة، التأرجح، البندولي أحيانًا، والدائري أحيانًا، داخل وعيي. سديم فوسفوريّ، لكنّه فوسفور منطفئ، كعتمة مستنقع تتوه فيها بصيرتي وقت الصلاة وتجرّني معها. وهكذا، بينما كنّا نتناول المقبلات قلت له كل شيء. حكيت له برغم التأكيد على الكتمان المطلق الذي أوصى به الكولونيل بيريث لاروك، مغامرتي الغريبة كمعلم لهؤلاء التلاميذ المهمّين والسريين. وفارويل، الذي كان يبدو حتَّى تلك اللحظة طافيا في لا مبالاة وردوده أحادية المقطع، التي تدفعه لها سنّه بشكل متزايد، انتبه فجأة وتوسّل إليّ أن أحكي له القصّة كاملة، من دون إغفال شيء. وهذا ما فعلت، حكيت له طريقة اتصالهم بي، البيت في ضاحية «لاس كونديس» حيث ألقيت الدروس، الاستجابة الجيّدة من تلاميذي، القادرين على الاستيعاب إلى أقصى حدٍّ، اهتمامهم الذي لم يكن يتناقص برغم أنَّ بعض الجلسات كانت في ساعات متأخّرة من الليل، الأجر الذي حصلت عليه مقابل عملي، وتفاصيل أخرى صغيرة لا مجال لذكرها الآن وما عدت أتذكّرها حتَّى. وفي تلك اللحظة نظر لي فارويل مقطبًا حاجبيه، كأنّه فجأة لم يعد يعرفني، أو أنّه يكتشف وجهًا آخر في وجهي، أو أنَّه يشعر بنوبة مريرة من الحسد لعلاقتي الفريدة بدوائر السلطة، وسألني، بصوتٍ لاحظتُ أنّه مكبوح، كأنّه لا يستطيع حتَّى الآن

إلّا إطلاق نصف السؤال فقط، ما شكل الجنرال بينوشيه؟ وأنا هززت كتفي، مثلما تفعل الشخصيات الروائية عادة وليس البشر الحقيقيين. وقال فارويل: لا بد أنَّ الرجل به شيء يجعله غير عادي، وهززت كتفي من جديد. وقال فارويل: فكّر قليلًا، يا سباستيان. قالها بنبرة صوت كأنّه يريد أن يقول أو يعني: فكّر قليلًا أيها القسّ اللعين. وأنا هززت كتفي وتصنّعت التفكير. وعينيّ فارويل المضمومتين كانتا تواصلان محاولة النفاذ عبر عينيّ بشراسة مخرِّف عجوز. وحينئذٍ تذكّرت أوّل مرّة تكلّمت فيها مع الجنرال، على انفراد إلى حدٍّ ما، قبل الدرس الثاني أو الثالث، قبله بدقائق، عندما كنت ممسكًا بفنجان الشاي فوق ركبتي، والجنرال، مرتديًا زيَّه العسكريَّ، مهيبًا وقويا، اقترب منّي وسألني إن كنت أعرف ماذا كان يقرأ أليندي. ووضعت فنجان الشاي على الصينية ونهضت. وقال الجنرال اجلس يا أبتِ. وربّما لم يقل شيئًا وأشار بيده فقط لكي أجلس. وبعد ذلك قال شيئًا متعلِّقًا بالدرس التالي، شيئًا متعلِّقًا بممرّ عالي الجدران. متعلّقًا بحشد من الطلاب. وابتسمت بأريحية وأحنيت رأسي موافقًا. وحينئذٍ سألني الجنرال، إن كنت أعرف ماذا يقرأ أليندي، إن كنت أعتقد أن أليندي كان مثقّفًا. وأنا لم أعرف، بسبب المفاجأة، كيف أردُّ، قلت هذا لفارويل. والجنرال قال لي: كلّ الناس تقدّمه الآن كشهيدٍ ومثقّفٍ؛ لأنّ الشهداء فقط لم يعودوا يثيرون الاهتمام كثيرا، أليس كذلك؟ وأحنيت رأسي وابتسمت

بأريحية. لكنّه لم يكن مثقّفًا، إلّا في حالة وجود مثقّفين لا يقرأون ولا يدرسون، قال الجنرال، ما رأيك أنت؟ هززت كتفيَّ مثل طائر جريح. لا يوجد، قال الجنرال. المثقّف يجب أن يقرأ ويدرس وإلّا لا يكون مثقّفًا، هذا يعرفه حتَّى أكثر الناس بلاهة. وماذا إذن كان أليندي يقرأ باعتقادك؟ حرّكت رأسي قليلًا وابتسمت. مجلّات. كان يقرأ مجلّاتٍ فقط. ملخّصاتِ كتب. مقالات يجمعها معاونوه. أعرف هذا من مصدر موثوق به، صدِّقني. ارتبت في هذا الأمر دائمًا، همست. إذن شكوكك لها ما يبرّرها. وماذا كان يقرأ فراي؟ لا أعرف يا سيّدي الجنرال، غمغمت بثقة أكثر. لا شيء. لم يكن يقرأ شيئًا. لم يقرأ الإنجيل حتَّى. هذا، بالنسبة لك، كقسّ، كيف يبدو لك هذا؟ ليس لي رأيٌ محدّدٌ حول هذا الأمر يا سيّدي الجنرال، غمغمت. أنا أعتقد أنّ أحد مؤسّسي حزب (الديمقراطية المسيحية) كان يمكنه على الأقلّ أن يقوم بقراءة الإنجيل، أليس كذلك؟ قال الجنرال. ربّما، غمغمت. أقول هذا من دون سوء نية، فلنقل إنّني أوضحه، إنّها حقيقة، وأنا أوضحها، لا أستنتج شيئًا، على الأقلّ ليس حتَّى الآن، أليس كذلك؟ هو ذاك، قلت. وأليساندري؟ هل فكّرت ذات مرّة في الكتب التي كان يقرأها أليساندري؟ لا يا سيّدي الجنرال، همهمت مبتسمًا. لقد كان يقرأ روايات عاطفية. الرئيس أليساندري يقرأ روايات عاطفية، قدرنا أن نشهد هذا، ما رأيك؟ غير ممكن، يا سيّدي الجنرال. بالطبع ما دام الأمر يتعلق بأليساندري فهذا يبدو،

فلنقل، طبيعيّا، لا، منطقيًّا. منطقي إلى حدّ كبير أن تميل قراءاته إلى هذا. هل تفهمني؟ لا أفهم يا سيّدي الجنرال، قلت وعلى وجهي تعبير المعاناة. حسنًا، المسكين أليسنادري، قال الجنرال بينوشيه ونظر إليّ مليًّا. آه، بالطبع، قلت أنا. هل تفهمني الآن؟ أفهمك يا سيّدي الجنرال، قلت. هل تتذكّر مقالًا لأليساندري؟ شيئًا كتبه هو بمفرده وليس أحد الكتّاب من الباطن؟ لا أعتقد يا سيّدي الجنرال، غمغمت. بالطبع لا، لأنّه لم يكتب أيّ شيء مطلقًا. ويمكن قول الشيء نفسه عن فراي وعن أليندي . لم يكونوا يقرأون ولا يكتبون. كانوا يدّعون أنهم مثقفون، لكن لا أحد من الثلاثة كان يقرأ أو يكتب. لم يكونوا رجالًا للكتب، على الأكثر كانوا رجالًا للصحافة. بالطبع يا سيدي الجنرال، لو رأينا الأمر من هذه الزاوية، قلت مبتسما بأريحية. وفي تلك اللحظة سألني الجنرال: كم كتابا تعتقد أنني كتبت؟ فقدت النطق، قلت لفارويل. لم يكن لديّ أدنى فكرة. ثلاثة أو أربعة، قال فارويل بثقة. على أي حال أنا لم أكن أعرف هذا. وكان عليّ أن أعترف بهذا. ثلاثة، قال الجنرال. في الواقع لقد نشرت دائما في دور نشر غير معروفة، أو في دور نشر متخصّصة. لكن، اشرب شايك يا أبتِ، سوف يبرد. أيّ خبر مدهش، أيّ خبر جيد، قلت. حسناً، إنّها كتب عسكرية، في التاريخ العسكري، الجغرافيا السياسية، أمور لا تهمّ سوى المتخصصين في هذه الموضوعات. هذا رائع، ثلاثة كتب، قلت بصوت مبحوح. ونشرتُ مقالات لا حصر لها،

حتَّى في مجلات أمريكية، مترجمة للإنجليزية، بالطبع. كم يشرّفني أن أقرأ أحد كتبك يا سيّدي الجنرال، غمغمت. اذهب إلى المكتبة الوطنية، كلّها موجودة هناك. أنوي الذهاب صباح الغد من دون تأخير، قلت. بدا أنّ الجنرال لم يسمعني. لم يساعدني أحد، كتبتهم بمفردي، ثلاثة كتب، أحدهم سميك إلى حدٍّ كبير، كتبتهم من دون مساعدة من أحد، منكبًا حتَّى ساعات متأخّرة. وبعد ذلك قال: مقالات لا حصر لها، من كلِّ نوع، دائمًا، هذا حقيقي، محصورة في العلوم العسكرية. لبرهة ظللنا صامتين، برغم أنّني كنت أحني رأسي طوال الوقت كأنّني أدعوه إلى مواصلة الكلام. لماذا تعتقد أنّني حكيت لك هذا؟ قال فجأة. هززت كتفي وابتسمت بأريحية. لكي أزيل أي لبس، أكدّ. لكي تعرف أنني أحب القراءة، أنا أقرأ كتبًا في التاريخ، أقرأ كتبًا عن النظريات السياسية، وحتَّى أقرأ روايات. آخرها كانت «الحمامة البيضاء» لـ(لافوركادي)، رواية روحُها شبابية للغاية، لكنّني قرأتها لأنّني لا أحتقر متابعة الجديد، وأعجبتني. هل قرأتها؟ نعم يا سيّدي الجنرال، قلت. وما رأيك فيها. ممتازة يا سيّدي الجنرال، وقد نشرت مقالًا عنها وأثنيت عليها كثيرًا، أجبت. حسنًا، ليس لهذه الدرجة، قال بينوشيه. بالطبع، قلت. عدنا للصمت. فجأة وضع الجنرال يده على ركبتي، قلت لفارويل. شعرت برعشة. عاصفة من الأيدي خلال لحظة، حجبت إدراكي. لماذا تعتقد أنّني أريد أن أتعلّم المبادئ الأساسية للماركسية؟ سأل. لكي

تخدم الوطن بشكل أفضلَ يا سيّدي الجنرال. بالضبط، لكي أفهم أعداء تشيلي، لكي أعرف كيف يفكّرون، لكي أتخيّل إلى أيّ مدى يمكنهم أن يصلوا. أنا أعرف إلى أيٍّ مدى يمكنني أن أصل، أؤكّد لك. لكنّني أيضًا أريد أن أعرف إلى أيٍّ مدى يمكنهم هم أن يصلوا. بالإضافة إلى هذا أنا لا أخاف من التعلّم. يجب أن يكون الإنسان مستعدًّا لتعلُّم شيء جديد كلّ يوم. أنا أقرأ وأكتب بانتظام؟ لا يمكن أن نقول هذا عن أليندي أو فراي أو أليساندري، أليس كذلك؟ أحنيت رأسي موافقًا ثلاث مرّات. بهذا أريد أن أقول، يا أبتِ، إنّك لا تضيّع وقتك معي، وأنّني لن أضيّع وقتي معك، أهذا صحيح؟ صحيح جدًّا يا سيّدي الجنرال، قلت. وعندما انتهيت من حكي هذه القصّة كانت عينا فارويل شبه مغمضتين مثل شرك خائب لدبٍّ، دمّره المطر والزمن والبرد الجليدي، لكنّه كان لا يزال ينظر إليّ. وشعرت أن أكبر النقاد للأدب التشيلي في القرن العشرين قد مات. فارويل، همست، هل ما فعلته صواب أم خطأ؟ ولأنّني لم أتلقَّ إجابة، سألته السؤال نفسه من جديد: هل فعلت الصواب أم أخطأت؟ وردّ عليّ فارويل بسؤال آخر: هل كان عملًا ضروريًّا أم غير ضروري؟ ضروري، ضروري، ضروري، قلت. ويبدو أنَّ هذا كان كافيًا له، وفي ذلك الوقت، لي أيضًا.. وبعد ذلك واصلنا الطعام وواصلنا الكلام. وفي إحدى لحظات حوارنا قلت له: ولا كلمة واحدة لأحد ممّا حكيت لك. هذا بديهي، قال فارويل. تكلّم بنفس نبرة

الكولونيل بيريث لاروك. نبرة مختلفة عن النبرة التي استخدمها قبل أيّام اَلسيِّدان بعر وهرك، اللذان لم يكونا على أيّ حال شخصين لبقَين. لكن في الأسبوع التالي كانت القصّة قد بدأت تسري في سانتياجو مثل النار في الهشيم. القس ايباكاتشي أعطى المجلسَ دروسًا في الماركسية. فقدت النطق عندما عرفت. رأيت فارويل، أريد أن أقول، تخيّلته بوضوح كأنّني أتجسّس عليه، جالسًا على مقعده المفضّل أو على مقعده في النادي أو في صالون إحدى العجائز اللائي كان يحرص على صداقتهنّ منذ دهور، مثرثرًا، شبه خرف، أمام جمهور مكوّن من جنرالات متقاعدين يعملون الآن في التجارة، شواذ يرتدون ملابس على الموضة الإنجليزية، سيّدات من عائلات مشهورة على وشك أن يمتن، تخيّلته يحكي مغامرتي كمدرّسٍ خصوصي للمجلس. وهؤلاء الشواذ وتلك العجائز المحتضرات، وحتَّى الجنرالات المتقاعدين المتحوّلين إلى مستشارين لشركات لن ينتظروا كثيرًا لكي يحكوا لآخرين، وهؤلاء لآخرين، ولآخرين ولآخرين. بالطبع، نفى فارويل أن يكون مصدر التسريبات أو عود الثقاب الذي أشعل الشائعات، ولم أر في نفسي قوّة ولا رغبة في تحميله المسئولية. وهكذا جلست أمام التليفون وانتظرت مكالمات الأصدقاء، أو الأصدقاء السابقين، مكالمة هرك وبعر وبيريث لاروك يلومونني على إفشائي للسر، ومكالمة مجهولة من غاضبين، مكالمات من السلطات الكهنوتية مهتمة بمعرفة مقدار

الحقيقة ومقدار الكذب في الشائعة التي تسري، أو على الأقلّ، الأوساط الثقافية في سانتياجو، لكن لم يتصل بي أحد. في البداية عزوت هذا الصمت إلى موقف رافض بشكل عام موجّه نحو شخصي. بعد ذلك، بدهشة، أدركت أنّه لم يكن أحد مهتمًّا على الإطلاق. الوجوه المصمتة التي كانت تسكن الوطن كانت تتّجه، من دون أن تشعر، إلى أفق رمادي ومجهول، بالكاد كانت تلمع به أشعة قليلة، بعض البرق، بعض أعمدة الدخان. ماذا كان يوجد هناك؟ لم نكن نعرف. لا يوجد أي سورديللو. نعم، لا يوجد أيّ «جيدو»[1] منقذ. لا توجد أشجار خضراء، ولا جياد تجري. لا يوجد أيّ نقاش، أيّ بحث. ربّما كنّا في الطريق نحو أرواحنا المعذّبة أو أرواح أسلافنا المعذبة، الراحة الأبدية الممتدة أمام أعيننا القذرة أو الباكية، الميتة أو الغاضبة. نلناها عن جدارة خاصة أو بمساعدة خارجية. وهكذا يبدو طبيعيا ألا يهتم أحد بدروسي للتعريف بالماركسية. كلهم، إن آجلا أو عاجلا، سوف يتقاسمون السلطة. يمين، وسط، يسار، كلهم من عائلة واحدة. ربما بعض المشاكل والاختلافات الفكرية، لكن لا يوجد فرق في الأداء. اليوم يحكم رجل يساري ونعيش بنفس الطريقة. الشيوعيون (الذين يعيشون وكأنّ السور لم يسقط)، الديمقراطيون المسيحيون، الاشتراكيون، اليمين، العسكريون. أو بالعكس.

---

(1) إشارة للجنرال الأرجنتيني «توماس جيدو»، الذي قام بقيادة جيش مكوّن من الأرجنتينيّين والتشيليّين لمساعدة تشيلي على الاستقلال عن إسبانيا

يمكنني أن أذكرهم بالعكس. ترتيب العناصر لا يغيّر النتيجة. لا توجد أيّ مشكلة. بعض الحُمّى فقط. ثلاثة أفعال جنونية فقط. بوادر مرض ذهاني طالت بشكل مبالغ فيه فقط. استطعت الخروج إلى الشارع من جديد، استطعت مكالمة معارفي ولم يقل لي أحده منهم شيئا. على العكس، في سنوات الحديد والنار تلك، أثنى الكثيرون على إصراري على نشر المقالات وعروض الكتب. أثنى الكثيرون على أشعاري. اقترب منّي أكثر من شخص ليطلبوا معروفًا. وكنت سخيًّا في التوصيّات، أفضال يطلبها التشيليون، توصيّات بأعمال لا أهمية لها، لكن أصحاب الشأن كانوا يشكرونني كأنّني ضمنت لهم الخلاص الأبدي. على أيّ حال، كلنا كنّا عاقلين (فيما عدا الشابّ الهرِم، في ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف أين كان يتسكّع، أين اختفى)، كلّنا كنّا تشيليين، كلّنا كنّا أناسًا عاديين، كتومين، منطقيّين، معتدلين، حذرين، حكماء، كنّا جميعًا نعرف أنّه يجب فعل شيء، توجد أمور ضرورية، فترة من التضحيات، وفترة أخرى من الاستقرار المثمر. أحيانًا، في الليل، والأنوار مطفأة، كنت أجلس على مقعد وأسأل نفسي ما هو الفرق بين الفاشي والثائر المسلّح. الفرق بين كلمتين فقط. كلمتين لا غير. أحيانًا أتساءل عن مغزى كلمة واحدة. لكن في الغالب أقارن بين الكلمتين. هكذا خرجت إلى الشارع واستنشقت هواء سانتياجو باقتناع غامض أنّني إن لم أكن في أفضل العوالم، فأنا في عالم ممكن، عالم حقيقي، ونشرت ديوان شعر، كانت قصائده غريبة حتّى لي، أريد أن أقول، غريبة

على قلمي، غريبة على أن تكون قصائدي، لكنّني نشرته كإسهام في الحرّية، حرّيتي وحرّية القرّاء، وبعد ذلك عدت لدروسي ومحاضراتي، ونشرت كتابًا آخر في إسبانيا، في بامبلونا، وحانت ساعة التجوّال في مطارات العالم، بين أوروبيّين أنيقين وأمريكيين مهيبين (بالإضافة إلى هذا يبدون مُرهَقين)، بين أكثر الرجال أناقة من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، كان النظر إلى هؤلاء السادة متعة للعين، وأنا أمرُّ بجانبهم، بردائي المتطاير من تيارات الهواء المكيَّف أو الأبواب الأوتوماتيكية التي تفتح فجأة، من دون سبب منطقي، كأنّها تستشعر وجود الربّ، وكلهم كانوا يقولون عندما يرون ردائي المتواضع متطايراً في الهواء: ها هو الأب سباستيان، الأب أوروتيا، الذي لا يكلّ، التشيلي المتألّق، وبعد ذلك عدت إلى تشيلي، لأنّني دائمًا أعود، وإلّا، فلن أكون ذلك التشيلي المتألّق، وواصلت نشر حوليّاتي في الجريدة، ومقالاتي النقدية التي كانوا يطلبونها بتلهّف، التي كان القارئ الشارد ينبش سطحها قليلًا، وهذا موقف مكترث بالثقافة، مقالاتي النقدية التي كانوا يطلبونها بلهفة، بل ويتوسّلون أيضًا. قراءتي للإغريق، واللاتينيين، قراءتي للبروفنسيين[1] ودولشي ستيل نوفو[2]،

(1) الأدب البروفنسي هو الأعمال المكتوبة بهذه اللغة في جنوب فرنسا وبدأت بكتابة الشعر في القرن الحادي عشر والثاني عشر. كان هذا الأدب هو الحافز لظهور أعمال أدبية مكتوبة باللغات المحلّية (التي كانت تعتبر لهجات أو لغات عامية) في القرون الوسطى.

(2) Dolce stil novo تعبير تمَّ صكّه في القرن التاسع عشر، للإشارة إلى مجموعة من الشعراء الإيطاليين الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كان من بينهم دانتي أليجري. والمصطلح نفسه مستوحًى من الكوميديا الالهية.

وقراءتي للكلاسيكيين الإسبان والفرنسيين والإنجليز، المزيد من الثقافة، المزيد من الثقافة، قراءتي لوايتمان وباوند واليوت، قراءتي لنيرودا وبروخيس وباييخو- قراءتي لفيكتور هوجو، يا إلهي، وقراءتي لتولستوي، وكنت أصرخ متباهيًا في الصحراء بمفردي، وحشرجتي، وفي بعض الأحيان عوائي كان لا يسمعهما سوى القادرين على خدش سطح كتاباتي بأصبع السبابة، هم فقط، الذين لم يكونوا كثيرين، لكن كانوا كافيين لي، وكانت الحياة تستمر وتستمر، مثل عقد من الأرز، على كلّ حبّة يوجد منظر طبيعي مرسوم، حبّات دقيقة ومناظر ميكروسكوبية، وكنت أعرف أنّ الجميع يضع العقد حول عنقه لكن لم يكن بينهم من لديه الصبر اللازم ولا القوة النفسية لخلعه وتقريبه من عينيه وفكّ شفرة كلّ منظر، حبّة بعد الأخرى. من ناحية لأنَّ المناظر المصغّرة تتطلّب نظرًا كنظر الوشق، كنظر الصقر، ومن ناحية لأنّ الحبيبات تكشف في الغالب عن مفاجآت غير سارة مثل توابيت، مدافن على متن طيور محلّقة، مدن خاوية، الهاوية والدوار، ضآلة الإنسان وإرادته الضعيفة، أناس تشاهد التلفزيون، ناس تحضر مباريات كرة قدم، الملل مثل حاملة طائرات ضخمة تطوف المجال التشيلي. وتلك هي الحقيقة. كنّا نشعر بالملل. كنّا نقرأ ونشعر بالملل. نحن المثقّفين. لأنّه لا يمكن القراءة طوال الليل وطوال النهار. لا يمكن الكتابة طيلة النهار وطيلة الليل. لم نكن، ولسنا عمالقة فاقدي البصر، وفي تلك السنوات، كما الآن، كان

الكتّاب والفنّانون التشيليون بحاجة إلى الاجتماع والحوار، إن أمكن في مكان لطيف ومع أفردا أذكياء. إلى جانب الحقيقة التي لا يمكن إنكارها برحيل أصدقاء كثيرين عن البلاد لأسباب شخصية أكثر منها سياسية، المشكلة كانت في حظر التجول. أين يمكن أن يجتمع المثقّفون والفنّانون إن كانت كلّ الأماكن تغلق في العاشرة مساء، والليل كما يعرف كلّ الناس هو الوقت المناسب للاجتماع والبوح والحوار بين أفراد متشابهين. الفنّانون والكتاب. أي زمن. أتخيّل أنّني أرى وجه الشابّ الهرِم. لا أراه، لكنّني أتخيّل أنّني أراه. يقلّص أنفه، ويتشمّم الأفق، يرتعش من رأسه حتى أخمص قدمَيه. لا أراه، لكنّني أتخيّل أنّني أراه مقرفصًا أو زاحفًا على أربع في مكان عالٍ، بينما تمرّ السحب السوداء مسرعةً من فوق رأسه، والمكان العالي كان ربوة صغيرة، وبعد دقيقة أصبح باحةَ كنيسةٍ، باحةً سوداءَ مثل السحب، مشحون بالموجات الكهربائية مثل السحب، ويلمع من الرطوبة أو الدم، والشابّ الهرِم يرتعش ويرتعش ويقلّص أنفه وبعد ذلك يقفز فوق الحكاية. لكنّ الحكاية، الحكاية الحقيقية، لا يعرفها سواي. هي بسيطة وقاسية وحقيقية ويجب أن تُثير ضحكنا، يجب أن تقتلنا من الضحك. لكننا نعرف البكاء فقط، الشيء الوحيد الذي نفعله باقتناع هو البكاء. يوجد حظر تجوّل. المطاعم والبارات كانت تغلق مبكّرًا. الناس كانت تعود لبيوتها في ساعة مناسبة. لم يكن هناك أماكن كثيرة يمكن أن يجتمع فيها الكتاب والفنّانون ليشربوا

ويتكلّموا إلى ما شاءوا. هذه هي الحقيقة. وهذا ما حدث. كانت هناك سيّدة. اسمها ماريا كاناليس[1]. كانت كاتبة، كانت فتاة جميلة، كانت شابّة. أعتقد أنّها كانت تمتلك شيئًا من الموهبة. ولا يزال لديّ الرأي نفسه. موهبة. كيف أشرح هذا؟ منغلقة على نفسها، محفوظة في غمدها، منطوية. بعضهم غير رأيه وشدّوا ستارًا كثيفًا ونسوا. الشاب الهرِم يقفز عاريًا على الفريسة. لكنّني أعرف حكاية ماريا كاناليس وأعرف كلّ ما حدث. كانت كاتبة. ربما تكتب حتًى الآن. نحن الكتّاب والنقّاد لم يكن لدينا أماكن كثيرة لنذهب إليها. ماريا كاناليس كانت تمتلك بيتًا في الضواحي. بيتًا كبيرًا، محاطًا بحديقة مليئة بالشجر. بيت فيه صالون مريح، فيه مدفأة وويسكي من النوع الجيّد، كونياك من النوع الجيّد، بيت مفتوح للأصدقاء مرّة أو مرّتين كلّ أسبوع، وفي مناسبات قليلة ثلاث مرّات في الأسبوع. لا أعرف كيف تعرّفنا إليها. أظنّ أنّها قد جاءت ذات يوم إلى صالة تحرير إحدى الصحف، صالة تحرير إحدى المجلّات، إلى مقرّ جمعية الكتّاب التشيليين. من الممكن أن تكون قد حضرت ورشة أدبية. الواقع أنّنا بعد وقت قليل كنّا جميعًا نعرفها وكانت تعرفنا كلّنا. معاملتها كانت لطيفة.

---

(1) الاسم الحقيقي لهذه الشخصية هو «ماريانا كاييخاس» "Mariana Callejas" (1932)، كاتبة تشيلية وعميلة للمخابرات التشيلية. تمّ اتهامها والحكم عليها بالسجن لضلوعها في تدبير عمليات اغتيال لمعارضين تشيليين في الخارج بالاشتراك مع زوجها الأمريكي «مايكل تاونلي»، عميل المخابرات الأمريكية الذي كان يعمل بالتنسيق مع المخابرات التشيلية.

لقد قلت من قبل إنّها كانت فتاة جميلة. كان شعرها كستنائيًّا وعيناها كبيرتين. وكانت تقرأ كلّ ما يوصيها المرء بقراءته، أو هذا ما تدّعي. كانت تذهب إلى المعارض. ربَّما عرفناها في أحد المعارض. ربَّما بعد الخروج من أحد المعارض قامت بدعوة مجموعة لمواصلة الاجتماع في بيتها. كانت فتاة جميلة، لقد قلت هذا من قبل. كانت تحبُّ الفنَّ. كانت تحبُّ الحوار مع الرسّامين، مع أشخاص يقولون بعروض فنية أو يصنعون أفلامًا، ربَّما لأنَّ ثقافتها العامَّة كانت أقلَّ من ثقافة الكُتّاب بشكل واضح. أو هذا ما كانت تعتقد. ثم بدأت تتعامل مع الكتاب وأدركت أنَّهم لا يملكون ثقافة واسعة أيضًا. لا بدَّ أنَّها شعرت بارتياح كبير. ارتياح على الطريقة التشيلية. قليلون فقط هم المثقّفون حقيقة في هذا البلد التعس. الباقي لا يعرفون شيئًا. لكنَّ الناس لطفاء، ولا يمكن إلا أن تحبَّهم. ماريا كاناليس كانت لطيفة ولا يمكن إلَّا أن تحبَّها: أي أنَّها كانت سخيّة، لا يبدو أنَّ هناك ما يشغلها أكثر من راحة ضيوفها، وكانت تبذل كلَّ جهدها لتحقيق هذا. والحقيقة أنَّ الحضور كانوا يشعرون بالراحة في سهرات أو نقاشات أو أمسيات أو اجتماعات الكاتبة الناشئة. كان لديها ولدان. لم أقل هذا من قبل. إن لم تخنّي الذاكرة، كان لديها ولدان، الأكبر عمرُه عامان أو ثلاثة، والأصغر ثمانية أشهر تقريبًا، وكانت متزوجة من أمريكي اسمه جيمس تومبسون، وكان ممثلًا أو رئيسًا لشركة من بلاده افتتحت منذ وقت قليل فرعًا في تشيلي وآخر في الأرجنتين،

وكانت ماريا تناديه جيمي. بالطبع كنّا جميعًا نعرف جيمي. أنا أيضًا. كان الأمريكي التقليدي طويل القامة، شعره كستنائي، بشرته أكثر بياضًا من زوجته، قليل الكلام، لكن مهذبًا. أحيانًا كان يشارك في السهرات الفنية لماريا كاناليس، وفي تلك الحالة كان يقتصر على الاستماع بصبر لا نهائي لأقلّ الضيوف بريقا في السهرة. في الساعة التي يصل فيها الضيوف إلى البيت في قافلة كبيرة من سيّارات من كلِّ الأنواع، يكون الطفلان نائمين في غرفتهما في الطابق الثاني. كان البيت يتألف من ثلاثة طوابق، وأحيانًا كانت الخادمة أو المربّية تهبط بهما بين ذراعيها، مرتديين البيجامات، لكي يحبّوا الضيوف الذين وصلوا منذ قليل ويتحمّلوا مداعباتهم، وكان هؤلاء يمدحون جمال الطفلين أو أدبهما الجمَّ أو الشَّبَه الكبير مع الأب أو الأم، برغم أنّه في الواقع فإنّ الأكبر، الذي كان اسمه مثل أسمي، سباستيان، لم يكن يشبه أيًّا من أبويه، على عكس الصغير، الذي كانت كنيته جيمي، وكان صورة حية من جيمي الأب، مع بعض الملامح الإسبانية الموروثة من ماريا كاناليس، بعد ذلك كان الطفلان يذهبان وتذهب الخادمة أيضًا، فقد كانت تغلق على نفسها باب الغرفة المجاورة لغرفة الصغيرين، وفي الأسفل، في صالون ماريا كاناليس الفسيح، يبدأ الحفل، كانت المضيفة تقدّم الويسكي لكل الحضور، شخص يضع أسطوانة لديبوسي، أسطوانة من فيبرن، سجّلتها أوركسترا برلين، وبعد وقت قليل يخطُر على بال شخص أن يلقي قصيدة، وآخر

يخطر له أن يعدّد بصوت عالٍ مزايا هذه الرواية أو تلك، كان النقاش يدور حول الرسم والرقص الحديث، كانت تتشكّل حلقات صغيرة، كان يتمّ نقد العمل الأخير لفلان، وإفراط المديح للعرض الأخير لعلّان. بعضهم يتثاءب، أحيانًا كان يقترب منّي شاعر شابٌّ، معادٍ للنظام ويبدأ في الحديث عن أعمال باوند، وفي النهاية يحدِّثني عن أعماله شخصيًا (كنت أهتمُّ دائمًا بعمل الشبّان، أيًّا كانت اتجاهاتهم السياسية)، كانت المضيفة تظهر فجأة بصينية مليئة بالفطائر، أحدهم يأخذ بالبكاء، آخرون يغنون، في السادسة صباحًا، أو في السابعة، عندما يكون حظر التجوّل قد انتهى، نعود كلّنا في صفٍّ واحد متمايل إلى سيّاراتنا، بعضهم متعانقون، بعضهم نصف نائمين، الأغلبية سعداء، ثم تهدر ستة محركات أو سبعة في الصباح وتصمت عصافير الحديقة عن الغناء خلال ثوانٍ، والمضيفة تشير بيدها مودّعة من مدخل البيت، وتبدأ السيّارات بمغادرة الحديقة، إذ قام أحدنا سلفًا بفتح البوابة الحديدية، ولا تزال ماريا كاناليس واقفة أمام المدخل حتَّى تعبر السيّارة الأخيرة حدود بيتها، حدود قلعتها المضيافة، وتنطلق السيّارات في تلك الطرق الخالية لضواحي سانتياجو، طرق لا نهائية، تنهض على جوانبها بيوت معزولة، فيلات مهجورة أو لا يعتني بها أصحابها، وأراضٍ مقسّمة لم يتمّ البناء عليها بعد، تتضاعف في هذا الأفق اللانهائي، بينما تلمح الشمس من عند سلسلة الجبال، ومن المدينة يصلنا صدًى صاخب ليوم جديد.

وبعد أسبوع كنّا نذهب مرّة أخرى. هذه طريقة للوصف. لم أكن أذهب كلّ أسبوع. كنت أزور بيت ماريا كاناليس مرّة كلّ شهر. ربّما أقلّ. لكنَّ بعض الكُتّاب كانوا يذهبون كلَّ أسبوع. أو أكثر. الآن ينكر الجميع. الآن لديهم القدرة على أن يقولوا إنَّ من كان يذهب كلَّ أسبوع هو أنا. كنت أنا مَن يذهب أكثر من مرّة في الأسبوع. لكن حتَّى الشابّ الهرِم يعرف أنّ هذا افتراء. وهكذا يكون هذا الأمر غير قابل للنقاش. كنت أذهب قليلًا. وفي أسوأ الأحوال لم أكن أذهب كثيرًا. لكن عندما أذهب كنت أحتفظ بعينيَّ مفتوحتين، ولم يكن الويسكي يغشى إدراكي. كنت أهتمُّ بكلّ شيء. كنت أهتمُّ على سبيل المثال بسباستيان الطفل، سميي الصغير ووجهه الرفيع. ذات مرة نزلت به الخادمة وأخذته من ذراعيها وسألته عمّا به. الخادمة، مابوتشي[1] قُحّة، نظرت إليّ بثبات وأتت ببادرة على أنها ستأخذ الطفل. تجنّبتها. ماذا بك يا سباستيان؟ قلت له بحنان لم أكن أعرفه حتَّى تلك اللحظة. نظر لي الطفل بعينيه الكبيرتين الزرقاوين. وضعت يدي على وجهه. يا لَلوجه البارد. فجأة شعرت بالعينين تمتلئان بالدموع. حينئذٍ انتزعته الخادمة بطريقة فظّة. أردت أن أقول لها إنّني قسّ. شيء ما منعني، ربّما الشعور بأنّني سأصبح أضحوكة، أكثر شيء نخاف منه نحن التشيليين. عندما كانت تصعد السلالم، نظر لي الطفل من فوق كتف الخادمة التي كانت تحمله بين ذراعيها، وشعرت

---

(1) السكان الأصليّون في تشيلي والأرجنتين.

أنَّ هاتين العينين الكبيرتين تريان ما لا تحبّان أن تريا. ماريا كاناليس كانت فخورة به للغاية وكانت تثني على ذكائه. أمّا الصغير فكانت تثني على جرأته وجسارته. لم أكن أسمعها تقريبًا: كلّ الأمهات يقلن الترّهات نفسها. في الحقيقة كنت أتحدّث مع الفنّانين الواعدين الذين يَعِدون ويعملون على خلق المسرح التشيلي الجديد من عدم (أو من قراءات سرّية قليلة). المسرح التشيلي الجديد، مصطلح مستقًى من الإنجليزية وغير ملائم لوصف الفراغ الذي تركه المهاجرون، وكان هؤلاء الفنّانون يفكّرون في احتلاله وشغله بأعمالهم التي ما زالت في طور التكوين. كنت أتحدّث معهم ومع الأصدقاء القدامى المعروفين الذين كانوا مثلي، غير منتظمين في زياراتهم لهذا البيت في ضواحي سانتياجو لكي يتكلّموا عن الشعر الإنجليزي الميتافيزيقي أو للتعليق على آخر الأفلام التي شاهدوها في نيويورك. لم أتحدّث مع ماريا كاناليس أكثر من مرتين تقريبا، ودائما حوارات عابرة، وذات مرّة قرأت إحدى قصصها، قصّةٍ سوف تفوز بعد ذلك بالجائزة الأولى في مسابقة نظمتها مجلّة أدبية ذات صبغة يسارية. أتذكّر تلك المسابقة. لم أكن عضوًا في لجنة التحكيم. كما لم يطلبوا مني الانضمام. لو كانوا طلبوا مني لانضممت للجنة التحكيم. الأدب هو الأدب. لكن الواقع أنّني لم أكن محكمًا. وإن كنت عضوًا باللجنة ربّما لم أكن لأعطي الجائزة الأولى ماريا كاناليس. القصّة لم تكن سيئة، لكنّها كانت

أبعد ما يكون عن اعتبارها قصّة جيّدة. كانت متواضعة، ميديوكر تنمّ عن مجهود كبير. مثل مؤلّفتها. عرضتها على فارويل، الذي كان لا يزال على قيد الحياة في ذلك الوقت، لكنّه لم يذهب إلى أيّ أمسية أدبية في بيت ماريا كاناليس، في الغالب لأنّه لم يعد يخرج تقريبًا من بيته ولم يكن يتحدّث، أو فقط يتحدّث مع صديقاته العجائز. وقال لي بعد أن قرأ أسطرا قليلة إنّه نصٌّ مفزع، لا يستحقّ أن يفوز بجائزة حتّى في بوليفيا، وبعد ذلك تأسّف بمرارة على حال الأدب التشيلي، حيث اختفت شخصيّات بقامة رفائيل مالودينا، خوان دي أرماثا، أو جييرمو لاباركا هوبيرستون. كان فارويل جالسا على مقعده وأنا جالس في مواجهته، على مقعد الأصدقاء المقربّين. أتذكّر أنّني أغلقت عيني وأحنيت رأسي. من يتذكّر اليوم خوان دي أرماثا؟ كنت أفكّر بينما يحلّ المساء مع فحيح أفعى. فارويل وعجوز قوية الذاكرة فقط. مدرّس أدب تائه في الجنوب. حفيد مجنون، متشبّث بماضٍ مثالي لا وجود له. لا نمتلك شيئًا، غمغمت. ماذا تقول، قال فارويل. لا شيء، قلت. هل أنت بخير؟ قال فارويل. أنا في خير حال، قلت. وبعد ذلك قلت أو فكّرت: حوارين. وهذا ما قلت أو فكّرت في بيت فارويل، الذي كان يتهاوى معه، أو في صومعتي في الدير. لأنّني لم أتحاور إلّا مرتين مع ماريا كاناليس. في أمسياتها، كنت أجلس عادة في أحد الأركان، بالقرب من السلم، بجانب نافذة كبيرة ومائدة يوجد عليها دائما آنية فخارية فيها

زهور نضرة. ولم أكن أتحرّك من هذا الركن، في ذلك الركن كنت أتحدّث مع الشاعر المتلهّف، مع الروائية النسوية، مع الرسّام الطليعي، بعين ثابتة على السلم، منتظرًا الهبوط المعتاد للمابوتشي وسباستيان الطفل. أحيانًا كانت ماريا كاناليس تنضمّ إلى حلقتي. لطيفة دائمًا. ودائماً على أهبة الاستعداد لتلبية أي رغبة من رغباتي. لكنّني أعتقد أنّها لم تكن تفهم كلماتي، خطابي. كانت تتصنّع الفهم، لكن ماذا كانت ستفهم. كما لم تكن تفهم كلمات الشاعر المتلهّف، وبدرجة أكبر كانت تتفهّم مشاعر الروائية النسوية، وكانت تتحمس لمشاريع الرسّام الطليعي. لكنّها بشكل عام، كانت تسمع فقط. أكرّر: عندما كانت تأتي إلى ركني، حيث مجموعتي المغلقة. في نقاط أخرى من تلك الصالة الضخمة كانت هي صاحبة الأمر والنهي عادة. وعندما يكون الكلام في السياسة حزمها يكون رادعًا، صوتها القوي إلى حدٍّ كبير، لم يكن يتردّد عن الاعتراض. ومع ذلك، لم يكن هذا يعني أنّها لم تعد مضيفة ممتازة: كانت تعرف كيف تزيل الاستهجان بالمزاح، بنكات تشيلية. ذات مرّة اقتربت منّي (كنت بمفردي، وفي يدي كوب ويسكي، مفكّرًا في سباستيان الصغير ووجهه الحائر)، وبدون مقدّمات عبّرت لي عن إعجابها بالروائية النسوية. من يستطيع أن يكتب مثلها، قالت. عقبت عليها بصراحة: صفحات كثيرة لدى الروائية النسوية كانت ترجمة سيئة (لكي لا أسمّيه انتحالًا، وهو وصف قاسٍ إن لم يكن غير عادل) من بعض

الروائيّات الفرنسيّات من عقد الخمسينيات. كنت أنظر إلى وجهها. كان، من دون شكّ، وجهًا هجينًا. نظرت إليّ من دون أيّ تعبير وبعد ذلك، شيئًا فشيئًا، بطريقة غير ملموسة تقريبًا، رسمت ابتسامة أو محاولة للابتسام لم تفلح في كبحها. لم يكن باستطاعة أيّ شخص أن يقول إنّها كانت تبتسم، لكنّني قسٌّ كاثوليكي وأدركت هذا في الحال. الكشف عن طبيعة الابتسامة كان أكثر صعوبة. ربّما كانت ابتسامة رضا. لكن، عن أيّ شيء؟ ربّما ابتسامة تمعّن، أي أنّها رأت وجهي عبر إجابتي، والآن تعرف (أو تعتقد أنّها تعرف تلك الهجينة) من أكون، وربما كانت فقط ابتسامة فراغ، الابتسامة التي تتشكّل بشكل غامض في الفراغ، وتختفي في الفضاء. هذا يعني أنَّ ما تكتبه لا يعجبك، قالت لي. اختفت الابتسامة واستعاد وجهها التعبير البليد نفسه. يعجبني بالطبع، رددت عليها، لكنّني أكشف عن عيوبها من وجهة نظر نقدية فقط. أي جملة عبثية. أفكّر في هذا الآن، بينما أستلقي منهكًا في الفراش، وجسدي المسكين الذي أصبح هيكلًا عظميًّا يستند كلّه على كوعي. أي جملة سريعة النسيان، أي جملة رديئة البناء، أي جملة غبية. كلّنا فينا عيوب، قلت لنفسي. يا لَلرعب. العباقرة فقط يمكنهم أن يقدِّموا أعمالًا لا تشوبها شائبة. أي ذعر. كوعي يرتعش. فراشي يرتعش، الملاءات والأغطية ترتعش. أين الشابُّ الهرِم؟ ألا يثير ضحكه سماع قصة عثراتي؟ ألا يضحك ملء شدقيه من هرائي، من ذنوبي الخفيفة والمميتة؟ أم أنّه قد ملَّ

ولم يعد بجانب سريري البرونزي الذي يدور تشبُّها بسورديل، سورديو، أي سورديو؟ فليفعل ما يريد. وقلت: كلّنا فينا عيوب، لكن يجب أن ننظر إلى الفضائل. قلت: كلّنا، بعد كلّ شيء، مؤلّفون، وطريقنا طويل وعَثِر. وماريا كاناليس، من أعماق وجهها كبلهاء متألّمة، نظرت إليّ كأنّها تحاول تخمين وزني ثم قالت: أي كلمات جميلة قلتها يا أبتِ. ونظرت إليها مندهشًا، من جانب لأنّها دائمًا كانت تناديني سباستيان، حتّى هذه اللحظة، مثل كلّ أصدقائي الكُتّاب، ومن ناحية أخرى لأنّ الخادمة بدأت تهبط السلالم في تلك اللحظة نفسها والطفلين على ذراعيها. وهذا الظهور المزدوج، الخادمة المابوتشي والطفل سباستيان من ناحية، ووجه ماريا كاناليس من جانب آخر، موقف ماريا كاناليس بمناداتي أبت، كأنّها فجأة تترك دورًا لطيفًا لكن لا أهمية له، وتندمج في دور آخر، أكثر خطورة بكثير، دور المذنب، أو في هذه الحالة دور المذنبة، جعلني منكشفًا أمام ضربات خصمي، كما يقال في أوساط الملاكمة (أعتقد هذا)، جعلني أدخل خلال ثوانٍ في حالة تشبه التوحّد، ذلك التوحّد الذي نشارك فيه جميعا وكلّنا نؤمن فيها، لكن لا اسم له، لا يمكن وصفه، لا يمكن إدراكه. وقد سبّب لي شعور بالدوار، غثيان يفور في الصدر ويمكن الظنّ أنّه دموع، عرق، تسارع في دقّات القلب، وبعد أن غادرت بيت مضيفتنا الكريمة، نسبته لرؤية ذلك الطفل الصغير، الذي يحمل اسمي، الذي كان ينظر من دون أن يرى، محمولًا

على ذراع مربيّته المرعبة، الشفتان المغلقتان، العينان المغلقتان، كلّ جسده الصغير البريء مغلق، كأنّه لا يريد أن يرى ولا أن يسمع ولا أن يتكلّم في حفل أمّه الأسبوعي، أمام الحشد المبتهج خالي البال من المتأدّبين الذين كانت أمّه تدعوهم كلّ أسبوع. بعد ذلك لم أعرف ماذا حدث. لم أفقد الوعي، هذا ما أنا متأكّد منه. ربّما أكون قد فكّرت بجدية في عدم حضور أمسيات ماريا كاناليس بعد ذلك. تحدّثت مع فارويل. كم كان فارويل بعيدًا عن كلِّ شيء؟ أحيانًا كان يتحدّث عن بابلو لدرجة يشعر معها المرء أن نيرودا لا يزال حيًّا. أحيانًا كان يتحدّث عن أوجوستو، هنا أوجوستو وهناك أوجوستو ويحتاج المرء لساعات، إن لم تكن أيّامًا لإدراك أنه يقصد أوجوستو دي هالمار. الحقيقة أنّ الكلام مع فارويل أصبح غير ممكنًا. أحيانًا كنت أنظر إليه مليًّا وأفكّر: عجوز ثرثار، عجوز نَمّام، عجوز سكران، هكذا ينتهي العظماء في هذا العالم. لكن بعد ذلك كنت أنهض وأبحث له عن الأشياء التي يطلبها منّي، تماثيل، منحوتات صغيرة من الفضّة أو الحديد، كتب قديمة لبلست جانا أو لويس أورّيجو لوكو، كان يكتفي بمداعبتها. كنت أسأل نفسي: أين الأدب؟ هل الشابّ الهرم على حقّ؟ هل هو على حقٍّ في النهاية؟ كتبت أو حاولت كتابة قصيدة. في أحد أبياتها يظهر طفل بعينين زرقاوين ينظر من خلال زجاج نافذة. يا لَلبشاعة، يا لَلهزل. بعد ذلك ذهبت إلى بيت ماريا كاناليس. كلّ شيء كما هو. الفنّانون يضحكون، يشربون،

يرقصون، بينما في الخارج، في تلك المنطقة من سانتياجو ذات الشوارع الكبيرة الخالية، يسري حظر التجوّل. لم أكن أشرب، لم أكن أرقص، فقط كنت أبتسم بهدوء. وكنت أفكّر. أفكّر أنّه من العجيب ألّا تظهر دورية من الشرطة العسكرية برغم الضجيج وأضواء البيت. كنت أفكّر في ماريا كاناليس، في ذلك الوقت كانت قد فازت بجائزة أخرى عن قصّة متواضعة إلى حدّ كبير. كنت أفكر في جيمي تومبسون، الزوج الذي كان أحيانًا يغيب خلال أسابيع بل وأشهر. كنت أفكّر في الطفلين، على الأخصّ في سميي الصغير، الذي كان ينمو رغمًا عنه تقريبًا. ذات ليلة حلمت بالأب أنطونيو، راعي تلك الكنيسة في بورجوس وقد مات لاعنًا فنون القنص. كنت في بيتي في سانتياجو والأب أنطونيو يبدو حيًّا، مرتديًا رداءً برّاقاً، منتفخاً مليئاً بالشارات، وبدون أن ينطق، أشار بيده لكي أتبعه. وهذا ما فعلت. خرجنا إلى فناء مرصوف بأحجار يضيئها القمر. في وسط الفناء توجد شجرة، من نوع غير معروف، من دون أوراق. الأب أنطونيو عند البواكي على طرف الفناء، كان يشير إليها بإصرار. قس مسكين. كم هو عجوز، كنت أفكّر، برغم هذا كنت أنظر إلى الشجرة باهتمام، كما كانت رغبته، وعلى أحد فروعها كنت أرى صقرًا ساكنًا. قلت متعجّبًا: إنّه رودريجو. رودريجو العجوز، أي هيئة بهيّة، نبيلٌ ومهيب، يقف على أحد الفروع بأناقة، تضيئه أشعّة سيلين (آلهة القمر)، شامخ ووحيد. وآنذاك بينما كنت أنظر

بإعجاب إلى الصقر، جذبني الأب أنطونيو من كُمّي وعندما نظرت إليه لاحظت أنَّ عينيه كانتا مفتوحتين على آخرهما ويقطر عرقاً ووجنتاه وذقنه يرتعشون. وعندما نظر إليّ أدركت أنَّها دموع غزيرة تنهمر من عينيه، دموع كبيرة مثل لؤلؤ غير نقي تنعكس عليه أشعّة سيلين، وبعد ذلك أشار بإصبعه الجافّ إلى البواكي والأقواس على الجانب الآخر، وبعد ذلك أشار إلى القمر أو إلى ضوء القمر وبعد ذلك أشار إلى الليل الخالي من النجوم ثم أشار إلى الشجرة المنتصبة وسط ذلك البهو الضخم ثم أشار إلى صقره روديجو، وكان يفعل كل هذا بوعي لكنّه لم يتوقّف عن الإرتعاش. وكنت أداعب ظهره، ظهر أصبح له حدبة صغيرة، لكن في ما عدا هذا لا يزال ظهرًا جميلًا، مثل ظهر فلّاح شابٌّ أو ظهر رياضيٍّ ناشئ، وكنت أحاول أن أهدِّئه لكن شفتاي لم تُخْرِجا حرفًا واحدًا، ثم أخذ الأب أنطونيو يبكي بحرقة، بحرقة تجعلني أشعر برعشة باردة تلفّ جسدي وخوف لا يمكن وصفه في روحي، الأب أنطونيو الذي أصبح ذلك الرجل الضئيل لم يكن يبكي بعينيه فقط لكن بجبهته ويديه وقدميه، العنق المحني، غشاء سائل فوق جلده المشدود، وحينئذٍ، بينما يرفع رأسه إلى أعلى، إلى عينيَّ، بجهد كبير، كان يسألني إن كنت لاحظت. ماذا لاحظت؟ فكّرت بينما كان الأب أنطونيو ينهار. إنّها شجرة يهوذا، قال قس بورجوس مختنقا. استنتاج لا يرقى له الشكّ. شجرة يهوذا. في تلك اللحظة اعتقدت أنّني سأموت. كلّ شيء توقّف.

رودريجو لا يزال واقفًا على الفرع. البهو أو الميدان لا يزال مضاءً بأشعّة سيلين. كلّ شيء توقّف. حينئذٍ بدأت أسير إلى شجرة يهوذا. في البداية حاولت الصلاة، لكنّني كنت قد نسيت كلّ الصلوات. مشيت. خطواتي كانت تُسمع بالكاد في الليل الفسيح. عندما كنت قد اقتربت بما يكفي التفتّ وأردت أن أقول شيئًا للأب أنطونيو لكنّه لم يكن موجودًا في أي مكان. مات الأب أنطونيو، قلت لنفسي، هو الآن في الجنة أو في الجحيم. الاحتمال الأكبر أنّه موجود في مقابر بورجوس. مشيت. حرّك الصقر رأسه. كان يراقبني بإحدى عينيه. مشيت. أنا أحلم، فكّرت. أنا نائم في فراشي، في بيتي، في سانتياجو. هذا البهو أو هذا الميدان كان على الطراز الإيطالي، وأنا لست في إيطاليا وإنّما في تشيلي، فكّرت. حرّك الصقر رأسه، عينه الأخرى كانت تنظر إليّ. مشيت. أصبحت بجانب الشجرة. يبدو أنّ رودريجو يتعرّف علي. رفعت يدي. كانت الفروع الخالية من الأوراق تشبه الأحجار أو الورق المقوّى. رفعت يدي ولمست فرعًا. في تلك اللحظة أخذ الصقر يحلّق وبقيت بمفردي. أنا تائه، صرخت. أنا ميت. في ذلك الصباح، بعد أن نهضت من الفراش، اكتشفتُ أنّني من حين لآخر كنتُ أردّد: شجرة يهوذا، شجرة يهوذا، أثناء الدروس، أثناء سيري في الحديقة، عندما أقطع قراءاتي اليومية لأعدَّ لنفسي فنجان شاي. شجرة يهوذا، شجرة يهوذا. بينما كنت أدندن جاءتني لحظة كشف: تشيلي كلّها أصبحت شجرة يهوذا، شجرة بلا أوراق،

تبدو ميتة، لكن لا زالت جذورها قوية في الأرض السوداء، أرضنا الخصبة السوداء، حيث يبلغ طول الدود أربعين سنتيمترا. بعد ذلك عدت للذهاب إلى بيت ماريا كاناليس، التي كانت تكتب رواية. حدث موقف غريب، وأعتقد أنّه وقع بيننا سوء تفاهم، لا أعرف، سألتها فجأة عن ابنها، عن زوجها، وقلت لها إنّ الحياة هي أهمّ شيء، وليس الأدب، ونظرت إلي عينيَّ بوجهها البقري الأبله وعقّبت بأنّها تعرف. تعرف هذا منذ زمن بعيد. سلطتي تلاشت مثل فقاعة صابون، وسلطتها تزايدت إلى ما لا نهاية. شعرت بالدوار فلجأت إلى معقدي المعتاد وتجاوزت العاصفة على قدر استطاعتي. ولم أحضر أيّ من أمسياتها ثانية. بعد شهور، حكي لي صديق أنّه خلال إحدى الحفلات في بيت ماريا كاناليس، ضلّ أحد الضيوف طريقه. كان ثملًا للغاية، أو ثملة للغاية، إذ إنّ جنس الشخص لم يكن واضحًا، وخرج للذهاب إلى الحمام أو Water، كما لا يزال الكثير من أبناء بلدي التعساء يقولون. ربّما كان يريد التقيؤ، ربّما كان يريد أن يقضي حاجته فقط أو يبلل وجهه قليلًا، لكنّ الكحول ساعده على أن يفقد طريقه. بدلًا من السير في الممرّ في الجانب الأيمن، أخذ ممرّ الجانب الأيسر، بعد ذلك دخل ممرًّا آخر، نزل عدّة سلالم، كان في القبو من دون أن يدري. في الحقيقة كان البيت كبيرًا للغاية كالمتاهة. ما حدث أنّه سار في طرقات عديدة وفتح أبوابًا ووجد حجرات كثيرة خالية أو مليئة بصناديق أو خيوط العنكبوت التي

لم تكن الخادمة المابوتشي تهتمّ بتنظيفها. في النهاية وصل إلى ممر أضيق من الممرّات الأخرى وفتح الباب الأخير. رأي شيئًا يشبه السرير المعدني. أضاء النور. على السرير يوجد رجل عارٍ، مقيّد من معصميه وكعبيه. كان يبدو أنّه نائم، لكن يصعب التحقّق من هذه المعلومة، فقد كانت عيناه معصوبتين. التائه أو التائهة أغلق الباب، زال أثر الشراب في الحال، وعاد من الطريق نفسها بحذَر. بعد أن وصل إلى الصالون طلب كأس ويسكي، ثم كأسًا آخرَ ولم يقل شيئًا. بعد زمن، كم من الزمن كان قد مرّ؟ لا أعرف، حكى كلّ شيء لصديق، وهذا حكى لصديقي، الذي حكى لي بعد مرور وقت طويل للغاية. كان ضميره يعذّبه. قلت له: فليهدأ بالك... بعد ذلك عرفت من صديق آخر أن الذي ضلَّ طريقه كان مؤلفا مسرحياً وربما ممثلاً، وأنه سار حتَّى الضجر في الممرّات اللانهائية لبيت ماريا كاناليس وجيمي تومبسون، إلى أن وصل إلى ذلك الباب في نهاية الممرّات الضعيف الإضاءة، وأنه فتح الباب وأنه تعثر بالجسد المقيَّد على السرير المعدني، المتروك في ذلك القبو، لكنه لا زال حيّاً. وأغلق المؤلف أو الممثل الباب بحذر، محاولا ألا يوقظ الرجل المسكين الذي كان يتعافى من ألمه بالنوم، وأخذ يسير في الطريق نفسه وعاد للحفل أو الأمسية، أو سواريه ماريا كاناليس، ولم يقل شيئا. وبعد سنوات، بينما كنت أراقب السُّحب أثناء تفتتها، تشظّيها، وانفجارها في سماوات تشيلي بشكل لن تفعله سَحُب بولدلير على الإطلاق، عرفت أنّ

مُنَظِرًا طليعيا مسرحيا هو الذي ضلَّ طريقه في الممرّات السرية للبيت الكائن في أطراف سانتياجو، مُنَظِّرًا خفيف الظلّ، عندما وجد نفسه تائهًا لم يخف، بالإضافة إلى خفّة ظلّه كان لديه فضول طبيعي، وعندما أدرك أنّه تائه، ووجد نفسه في قبو ماريا كاناليس لم يشعر بالخوف، بالعكس استيقظت روحه المتطفلة، وأنّه فتح أبوابًا، بل أخذ يُصفّر، وأنّه في النهاية وصل إلى الحجرة الأخيرة في أضيق ممرّات القبو، الذي كان مضاءً بمصباح ضعيف فقط، وفتح الباب ورأى الرجل المقيّد إلى سرير معدني، العينين معصوبتين، وعرف أن الرجل لا زال حيا لأنّه سمع تنفسه، برغم أنّ حالته الجسدية لم تكن جيّدة. برغم الضوء الضعيف رأى جراحه، بثوره، كأنّها (أكزيما)، لكنّها لم تكن (أكزيمّا)، الأجزاء التي تعرّضت للتعذيب في جسده، الأجزاء المنتفخة، كأنّ فيها العديد من العظام المكسورة، لكنّه كان يتنفّس، لم يكن يبدو شخصًا على وشك الموت، بعد ذلك أغلق المُنَظِّرُ المسرحي الطليعي الباب بحذر، من دون أن يُصْدِرَ ضجيجًا، وبدأ يبحث عن طريق العودة إلى الصالون، مطفِئًا خلفه الأضواء التي أشعلها من قبل. وبعد شهور، أو ربما بعد سنوات، حكى لي أحد المتردّدين على السهرات الحكاية نفسها. ثم آخر، ثم آخر وآخر. وبعد ذلك جاءت الديمقراطية، اللحظة التي يجب على كلّ التشيليين أن يتصالحوا في ما بينهم، وبعد ذلك عُرِفَ أنّ جيمي تومبسون كان أحد العملاء المهمين في جهاز المخابرات التشيلي

وأنّه كان يستخدم بيته كمركز للاستجواب. المناهضون كانوا يمرّون على قبو جيمي، حيث كان يقوم باستجوابهم، كان يستخرج منهم كلّ المعلومات الممكنة، وبعد ذلك كان يرسلهم إلى مراكز اعتقال أخرى. كقاعدة عامّة، لم يكن يتمّ قتل أيّ شخص. كان يتمّ استجوابهم فقط، برغم أنّ بعضهم قد مات. وعُرِفَ أيضًا أنّ جيمي سافر إلى واشنطن وقتل أحد وزراء أليندي السابقين، بالإضافة إلى سيّدة أمريكية. وأنّه قد قام بالإعداد لاعتداءات في الأرجنتين ضدّ اللاجئين التشيليّين، بل وبعض الاعتداءات في أوروبّا، بلاد متحضّرة سافر إليها جيمي بالخجل الطبيعي لمن وُلدوا في أمريكا. هذا ما عُرف. ماريا كاناليس، كانت تعرف كلّ شيء قبل وقت طويل بالطبع. لكنّها كانت تريد أن تصبح كاتبة، والكتّاب بحاجة للاقتراب من كتّاب آخرين. جيمي كان يحبّ زوجته. ماريا كاناليس كانت تحبّ زوجها الأجنبي (الخواجة). كان لديهما ابنان رائعان. سباستيان الصغير لم يكن يحبّ أبويه، لكنّهما كانا أبويه. الخادمة المابوتشي، كانت تحبّ ماريا كاناليس على طريقتها، وربّما سيّدها أيضًا. خَدَم جيمي لم يكونوا يحبّونه، لكن قد تكون لهم عائلات أيضًا، ويحبّونها بطريقتهم الغريبة. وسألت نفسي السؤال التالي: لماذا كانت ماريا كاناليس، التي كانت تعرف ما يفعله زوجها في القبو، تدعو أناسًا إلى بيتها؟ الإجابة كانت سهلة: لأنّه خلال الأمسيَات، كقاعدة عامّة لم يكن يوجد ضيوف في القبو. وسألت نفسي

السؤال التالي: لماذا وَجَدَ أحد الضيوف ذلك الرجل المسكين عندما ضلّ طريقه؟ الإجابة كانت سهلة: لأنّ الاعتياد يقلّل الحذر، لأنّ التكرار يخفّف البشاعة. وسألت نفسي السؤال التالي: لماذا لم يقل أحد أيّ شيء في وقتها؟ الإجابة كانت سهلة: لأنه كان خائفًا، لأنهم كانوا خائفين. أنا لم أكن خائفًا. كان يمكنني أن أقول شيئًا، لكنّني لم أر شيئًا، لم أعرف شيئًا إلّا بعد مرور وقت طويل. لماذا نعبث في ما قام الزمن العطوف بإخفائه؟ بعد ذلك سيدخل جيمي السجن في الولايات المتّحدة. لكنّه تحدّث. شهادته أدانت العديد من الجنرالات في تشيلي. أخرجوه من السجن ودخل في برنامج خاصّ لرعاية الشهود. كأنّ جنرالات تشيلي كانوا من زعماء المافيا. كأنّ جنرالات تشيلي استطاعوا مدّ أذرعهم الأخطبوطية حتّى القرى الصغيرة في وسط الغرب الأمريكي لكي يُخْرِسوا الشهود غير المريحين. ماريا كاناليس أصبحت بمفردها. كلّ الأصدقاء، كلّ الذين ذهبوا إلى سهراتها الأدبية بإرادتهم، أعطوا لها ظهورهم. ذا مساء ذهبت إلى زيارتها. لم يعد هناك حظر تجوّل، ولم يَعُد من الغريب قيادة سيّارة في شوارع الضواحي التي كانت تتغيّر ببطء. البيت لم يعد كما كان من قبل: كلّ بهائه كان قد اختفى، البهاء الليلي النقيّ. الآن لم يعد إلّا بيتًا كبيرًا بشكل مبالغ فيه، بحديقة لا يُعتنى بها، حيث ينمو العشب كما يريد، بشكل مذهل، متسلّقًا الأسوار، كأنّه يريد أن يحجب عن المشاة رؤية ذلك البيت الموبوء. تركت

السيّارة بجانب البوابة ونظرت لبرهة من الرصيف. الزجاج كان متّسخًا والستائر مغلقة. درّاجة أطفال، حمراء اللون، كانت ملقاة بجانب السلم الذي يقود إلى المدخل. لمست الجرس. بعد فترة فُتِحَ الباب. أظهرت ماريا كاناليس نصف جسدها وسألت عمّا أريد... قلت إنّني أريد أن أتكلّم معها. لم تعرفني. سألت: هل أنت صحفي؟ قلت لها: أنا القسّ ايباكاتشي. سباستيان أوروتيا لاكروا. خلال بعض الثواني بدا أنّها تسترجع الزمن ثم ابتسمت وخرجت من البيت. قطعت المسافة التي تفصلها عنّي عبر الحديقة وفتحت البوابة. أنت آخر شخص كنت أنتظره، قالت لي. لم تكن ابتسامتها مختلفة عن تلك التي أتذكّرها. لقد مرّت سنوات كثيرة، قالت وكأنّها تقرأ أفكاري، لكن يبدو وكأنّه كان بالأمس. دخلنا البيت. لم يعد هناك أثاث كثير كما كان من قبل، واحتضار الحديقة كان له قرين في الحجرات، التي أذكر أنّها كانت مضيئة، ويبدو الآن أنّها مطلية بغبار محمرّ اللون، مجمّدة في زمن تحدث فيه أشياء غير مفهومة، حزينة، بعيدة. مقعدي، المقعد الذي اعتدت الجلوس عليه، كان لا يزال موجودًا. ماريا كاناليس تابعت اتجاه عينيّ وأدركت ما أفكّر فيه. أجلس يا أبت، قالت، أنت في بيتك. جلست من دون أن أقول شيئًا. سألتها عن ابنيها. قالت إنّهما يمضيان عدّة أيام مع بعض الأقارب. سألت: هل هما بصحّة جيّدة؟. جيّدة للغاية. سباستيان كَبُرَ كثيرًا، إن رأيته، لن تعرفه. سألتها عن زوجها، قالت إنّه في الولايات

المتحدة. الآن يعيش في الولايات المتحدة، قالت. وسألتها: وأنت، كيف حالك؟. أعتقد أنني بخير، قالت هذا بإيماءة يوحي نصفها بالتعب ونصفها بالضجر. قَرَّبَتْ مقعدًا من مقعدي وجلست تتأمّل الحديقة عبر الزجاج المتّسخ. كانت أكثر بدانة عمّا قبل. وملابسها أردأ من قبل. سألتها عن حياتها. فأجابت أنّ كلّ الناس تعرف حياتها ثم ضحكت ببذاءة أعتقد أنّني لمحت فيها شيئًا من التحدّي جعلتني أقشعرّ. لم يعد لديها أصدقاء، ولا مال، زوجها نسيها هي وابنيها، كلّ العالم أعطى لها ظهره، لكنّها كانت لا تزال هناك، ولا تحرم نفسها من متعة الضحك بصوت عالٍ. سألتها عن خادمتها. عادت للجنوب، قالت بصوت غائب. ورواياتك يا ماريا؟ هل انتهيتِ منها؟ غمغمت. ليس بعد يا أبتِ، قالت بصوت خفيض مثل صوتي. أسندت فكّي على يدي وبقيت مفكّرًا. حاولت أن أفكّر بوضوح، لكن لم أستطع. بينما كنت هناك، سمعتها تتحدّث عن صحفيين، معظمهم أجانب، كانوا يذهبون أحيانًا لزيارتها. أنا أريد أن أتحدّث عن الأدب، لكنّهم دائمًا يطرحون موضوع السياسة، عمل جيمي، ماذا كان شعوري، عن القبو. أغمضت عينيّ. اغفر لها يا إلهي، توسّلت في داخلي، اغفر لها. أحيانًا، مرّات قليلة، يأتي بعض التشيليين، بعض الأرجنتينيين. الآن أحصل على مقابل مادي للمقابلات. إن لم يدفعوا لا أتكلّم. لكن لا أقول لأيّ شخص، ولا مقابل ذهب العالم كلّه، من كان يَحضر سهراتي الفنية. أقسم لك. هل كنت

تعرفين كلّ ما كان يفعله جيمي؟ نعم يا أبت. وهل تشعرين بالندم؟ مثل كلّ الناس يا أبت، شعرت أنّني لا أستطيع التنفّس. نهضت وفتحت نافذة. أطراف الكمّ اتّسخت بالغبار. بعد ذلك حكت لي قصّة عن البيت. الأرض، في ما يبدو، لم تكن مُلْكها، والملّاك الأصليّين، بعض اليهود الذين كانوا لاجئين أكثر من عشرين عامًا، قاموا بمقاضاتها.وكما كان ينقصها المال الكافي لتوكيل محامين جيّدين، كانت واثقة من هزيمتها. مشروع اليهود كان هدم كلّ شيء، وبناء شيء جديد، لن تبقى أيّ ذكرى من بيتي، قالت ماريا كاناليس. نظرت لها بحزن وقلت لها إنّ هذا ربّما يكون أفضل شيء، وإنّها ما زالت شابّة، وغير متورّطة في أيّ محاكمة قضائية، ويمكنها أن تبدأ من جديد، مع ابنيها، في مكان آخر. ومسيرتي الأدبية؟ قالت بنبرة تحدٍّ. استخدمي اسماً مستعاراً، اسم أدبي، يا إلهي. نظرت إليّ وكأنّني قمت بسبّها. ثم ابتسمت: هل تريد أن ترى القبو؟ قالت. كدت أصفعها عدت مرات في اللحظة نفسها، لكن بدلًا من هذا جلست وهززت رأسي بالرفض عدّة مرّات. أغمضت عينيّ. بعد عدّة أشهر لن يصبح هذا ممكنًا، قالت لي. من نبرة صوتها، ومن أنفاسها الحارّة أدرت أنّها اقتربت أكثر من اللازم بوجهها من وجهي. عدت للرفض بإشارة من رأسي. سوف يهدمون البيت. سيدمّرون القبو. هنا قتل أحد خدم جيمي موظّفًا إسبانيًّا في اليونسكو. هنا قتل جيمي ثيثيليا سانشث بوبليتي. أحيانًا كنت أشاهد التلفزيون مع

الطفلين وينقطع النور لفترة. لم نكن نسمع أيَّ ضوضاء. فقط الكهرباء التي تنقطع فجأة ثم تعود. هل تريد أن تذهب لترى القبو؟ نهضت، مشيت عدّة خطوات في الصالة التي كان يجتمع فيها كُتّاب بلدي، الفنّانون، عمّال الثقافة، وقلت لا، بهزّةٍ من رأسي. سأذهب يا ماريا، يجب أن أذهب، قلت لها. ضحكت بقوّة مبالغة. لكن ربّما كان هذا خيالي فقط. عندما كنّا على الباب (كان المساء يهبط ببطء)، أخذت يدي، كأنّها فجأة شعرت بالخوف من البقاء بمفردها في ذلك البيت الملعون. ضغطت على يدها ونصحتها أن تصلّي. كنت متعَبًا للغاية، وقلت كلماتي بغير اقتناع. لا يمكنني أن أصلي أكثر ممّا أفعل، ردّت عليّ. حاولي يا ماريا، حاولي، من أجل ابنيك. استنشقت هواء ضواحي سانتياجو، هذا الهواء الذي كان جوهر الغروب. بعد ذلك نظرت حولها، بهدوء، بسكينة، شجاعة على طريقتها، ورأت بيتها، مدخل البيت، المكان الذي كانت تنتظر فيه السيّارات، الدرّاجة الحمراء، الأشجار، الممرَّ الترابي، الأسوار، النوافذ المغلقة، عدا تلك التي فتحتها من قبل، النجوم التي كانت تومض هناك بعيدًا، وقالت هكذا يصنع الأدب في تشيلي. أحنيت رأسي ومشيت. بينما كنت أقود، في طريق العودة إلى سانتياجو، فكّرت في كلماتها. هكذا يصنع الأدب في تشيلي، لكن ليس في تشيلي فقط، في الأرجنتين أيضا، وفي المكسيك، في جواتيمالا وفي أوروجواي، وفي إسبانيا وفي فرنسا وفي ألمانيا، وفي إنجلترا

الخضراء، وفي إيطاليا المبهجة. هكذا يصنع الأدب. أو ما نطلق عليه أدبًا، لكي لا نقع في الوحل. بعد ذلك أخذت أدندن: شجرة يهوذا، شجرة يهوذا، ودخلَتْ سيارتي مرّة أخرى في نفق الزمن، في آلة الزمن الكبيرة التي تفرم اللحم. وتذكّرت يوم موت فارويل. جنازته كانت هادئة وبسيطة، كما كانت رغبته. عندما بقيت بمفردي في بيته، بمفردي أمام مكتبة فارويل، التي كانت، بشكل غامض، تجسِّد غيابه وحضوره، سألت روحه (كان سؤالًا إطنابيًّا، بالطبع) لماذا حدث لنا في النهاية كل ما حدث؟ لم أتلقَ إجابة. اقتربت من أحد الأرفف الضخمة ولمست بأطراف أصابعي كعوب الكتب. تحرك شخص في أحد الأركان. قفزت. عندما اقتربت أدركت أنّها إحدى العجائز من صديقاته، وكانت قد نامت في مكانها. خرجنا من البيت بذراعين متشابكين. خلال الدفن، بينما كنّا نجوب الشوارع التي تشبه الثلّاجات، سألت أين فارويل. في التابوت، ردّ عليّ بعض الصبية الذين كانوا في المقدّمة. حمقى، قلت، لكن الصبية لم يكونوا موجودين بعد ذلك، اختفوا. المريض الآن هو أنا. سريري يدور في نهر سريع الجريان. لو كانت المياه مضطربة لأدركت أنَّ الموت قريب. لكنَّ المياه كانت سريعة فقط، وهذا يجعلني أحتفظ بالأمل. منذ وقت طويل يلتزم الشابّ الهَرِم بالصمت. ولم يعد يهاجمني ولا يهاجم الكتاب. هل يوجد حلّ لهذا؟ هكذا يصنع الأدب في تشيلي، هكذا يصنع الأدب في الغرب. فلتفهم هذا، أقول له.

الشابّ الهَرِم، ما تبقى منه، يحرّك شفتيه ليرسم «لا» غير مسموعة. قوّتي العقلية أوقفته. أو ربما كانت الحكاية. شخص واحد لا يستطيع فعل الكثير أمام حكاية. الشابّ الهَرِم كان دائمًا بمفرده، وأنا دائمًا كنت مع الحكاية. أرتكز على كوعي وأبحث عنه. أرى كتبي فقط، حيطان غرفة نومي، نافذة بين العتمة والنور. الآن يمكنني أن أنهض مرة أخرى وأبدأ حياتي من جديد، دروسي، مقالاتي الأدبية. أريد أن أعلّق على كتاب من الأدب الفرنسي الجديد. لكن افتقد القوة. هل يوجد حل لهذا؟ ذات يوم، بعد موت فارويل، ذهبت إلى ضيعته، «لا ـ باس» القديمة بصحبة بعض الأصدقاء، في ما يشبه رحلة للذكرى، نفضت يدي منها منذ وصلنا. أخذت أمشي في الحقول التي تجوّلت فيها في شبابي. بحثت عن الفلّاحين، تلك الحظائر التي كانوا يعيشون فيها كانت خاوية. الأصدقاء الذين ذهبوا معي كانت تقوم بخدمتهم عجوز. راقبتها من بعيد وعندما اتّجهت إلى المطبخ ذهبت خلفها وقمت بتحيّتها من الخارج، من الجانب الآخر من النافذة. لم تنظر إليّ حتّى. بعد ذلك عرفت أنّها شبه صماء، لكن ما حدث أنّها حتّى لم تنظر إليّ. هل يوجد حلٌّ لهذا؟ ذات يوم، للقضاء على الملل أكثر من أيّ شيء، سألت روائيًّا يساريًّا شابًّا إن كان يعرف شيئًا عن ماريا كاناليس. قال الشابُّ إنّه لم يعرفها مطلقًا. فقلت له، لكنّك ذهبت إلى بيتها بعض المرات. نفى ذلك برأسه مرّات عديدة وغيَّر الموضوع في الحال. هل يوجد حلّ

لهذا؟ أحيانًا أمرّ على فلّاحين يتكلّمون لغة أخرى. أوقفهم. أسألهم عن أمور في الزراعة. ويقولون لي إنّهم لا يعملون في الزراعة. هل يوجد حلّ لهذا؟ أحيانًا تهتزّ الأرض. مركز الزلزال في الشمال أو في الجنوب، لكنّني أسمع كيف تهتزّ الأرض. أحيانًا أشعر بالدوار. أحيانًا يكون الارتجاج أقسى من المعتاد والناس تختبئ تحت الأبواب أو تحت السلالم أو تخرج مهرولة إلى الشارع. هل يوجد حلٌّ لهذا؟ أرى الناس تجري في الشوارع. أرى الناس تدخل المترو والسينمات. أرى الناس تشتري الصحف. وأحيانًا عندما تهتزُّ الأرض يتوقّف خلال لحظة كلّ شيء. وحينئذٍ أسأل نفسي: أين الشابُّ الهرم؟ لماذا ذهب؟ وشيئًا فشيئًا تبدأ الحقيقة بالظهور مثل جثّة. جثّةٍ تصعد من قلب البحر أو من قلب هاوية. أرى ظلَّها الذي يصعد. ظلَّها المرتعش. ظلها الذي يرتفع كأنّه يصعد تلًّا على كوكب متحجّر. وفي تلك اللحظة، في عتمة مَرَضي، أرى وجهه الشرس، وجهه اللطيف، وأسأل نفسي: هل الشابُّ الهَرِم هو أنا؟ هل الرعب الحقيقي، الأكبر، أن أكون أنا الشابّ الهرم الذي يصرخ من دون أن يسمعه أحد؟ وأن أكون أنا الشابّ الهَرِم المسكين؟ وحينئذٍ تمرُّ الوجوه التي فتنتني بسرعة البرق، الوجوه التي أحببتها، كرهتُ، حسدتُ، احتقرتُ. الوجوه التي قمتُ بحمايتها، التي هاجمتها، الوجوه التي دافعتُ عن نفسي منها، التي بحثتُ عنها هباءً.

وبعد ذلك تنفجر عاصفة الغائط.


Twitter: @ketab_n

روبرتو بولانيو

ليل تشيلي

- نهر رائع من المشاعر، تأمّل مدهش، خيال آسر. "ليل تشيلي " عمل شديد الأصالة والتفرّد: رواية معاصرة كُتِبَت لتحتل مكانة عالية في الأدب العالمي.

(سوزان سونتاج)

- أعمال بولانيو مدهشة، متعددة الرؤى، لا يمكن تصنيفها، تجعل منه أحد أهم أبناء جيله من كتاب أمريكا اللاتينية.

(جريدة لوموند)

- أفضل أبناء جيله. إنه يتحول إلى أسطورة بسرعة النيازك.

(نيويورك تايمز)

❖ ❖ ❖

سباستيان أوروتيا لاكروا، قسّ وناقد أدبي وشاعر متواضع الموهبة. يتذكّر الأحداث الهامة في حياته في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث في مجتمع تقليدي محافظ يفوز الاشتراكي الليندي برئاسة الجمهوريّة، ويشكّل فوزه انتصاراً للديمقراطية وأملاً بالحداثة والتغيير في تشيلي. لكن الانقلاب العسكري الذي قام به بينوشيه يعيد المجتمع إلى الديكتاتورية.

القس، الناقد الأدبي والشاعر أوروتيا، عبر ذكرياته وعلاقاته الشخصيّة التي عرفها وموقعه ككاهن، يقدّم صورة عن تلك الفترة من تاريخ تشيلي: مجتمع المثقفين، السلطة، الكنيسة....

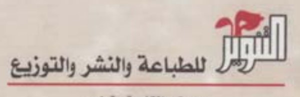
بالسخرية المبطنة يرسم بولانيو شخصياته ومصائرها التي يرصدها في عمله الذي يمثّل تأريخاً موازياً لتلك الفترة.

❖ ❖ ❖

روبرتو بولانيو: شاعر وروائي من تشيلي، ترجمت أعماله إلى لغات كثيرة. هاجر مع عائلته إلى المكسيك في 1968، وعاد إلى بلده قبل الانقلاب العسكري على سلفادور ألليندي. تم اعتقاله بعد الانقلاب، لكنه تمكن من الهرب بعد ثمانية أيام. عاد إلى المكسيك، ثم في العام 1977 هاجر إلى إسبانيا حيث عمل في وظائف عديدة لكنه ثابر على كتابة الشعر. قرر كتابة الرواية والقصة فقدّم أسلوبًا خاصًا جعله وريث كتّاب أميركا اللاتينية الكبار.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر





بيروت ـ القاهرة ـ تونس
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com